توفيق جاد
قصص
على خطى الشيطان
2020

مجموعة قصصية

على خُطى الشيطان

توفيق جاد

الطرق الوعرة والمعوجّة بالتواءاتها وانحناءاتها لن تسلك وتستقيم إلاّ باقتحام كبد الحقيقة المأفون ومجابهة عيون واقفها الزامد، والغوص في أعماق أسرارها الملتهبة، لكبح جماحها وحصارها كما الوباء، للقضاء على تلك المعضلات التي تتفشّى كما النار في الهشيم المتيبّس، وإعمال أعواد المحاريث بين طيّاتها، وقلب ما تخفّى واستترتحت قشورها الواهنة.

سهول الأحلام المتواشعة تتكشّف أمام جبال الواقع المتطاولة في العُلا.. تترامى بين ظهرانينا.. نذير لها ظهورنا باستكانة وخوف.. نحسب أنّ فيه نجاتنا وحياتنا.. تطعننا بخناجر السمعة المسمومة.. نرتمي بين ثناياها باستسلام وقبول خفيّ فنقع في حضن الموت.. مشجّعين كلّ حاسد ونفس حسدَ الحقد ما نما فيها من غيْرة، حتّى أعمى بصرها وبصيرتها عن ربوع الإنسانيّة وأزاهير الحياة المتفتّحة.

تأفل الغمامة.. يزول الوهم والكتمان.. يفتضح أمر كلّ ظالم، لإعادة كلّ كرامة ضائعة في وحل الفاسدين.

تصميم الغلاف
أحمد خالد طنش

مجموعة
قصصيّة

على خطى الشّـــيطان

توفيق أحمد جاد

توفيق أحمد جاد

على خُطى الشَّيْطان

قصص

|❖| ٢٠٢٠ |❖|

التصنيف

الواصفات: الأدب العربي الحديث \ القصص العربية

اسم الكتاب \ على خطى الشيطان

اسم المؤلف \ توفيق أحمد جاد

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

المملكة الأردنية الهاشمية

(٢٠٢٠١٣١١١١٤)

ردمك (ISBN(978-9923-9706-3-8

الطبعة الأولى

كافة الحقوق محفوظة للمؤلف

يتحمّل الكاتب كافة المسؤوليات القانونية عن محتوى مصنفه، ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية، أية جهة حكومية أخرى.

- **التنسيق والإخراج للطباعة: الروائي محمد فتحي المقداد.**
- **تصميم الغلاف: الشاعر أحمد طناش شطناوي.**

الإهداء

إلى كلّ الصّامتين

الصّابرين على آلامهم

ومصائبهم..

تقديم

خمسٌ من السنين العجاف كابدْتُها تردّداً في إكمال وإصدار هذه المجموعة القصصيّة لأسباب عدّة أهمها:

أنّ أحداث وتفاصيل قصصها ومواضيعها مخيفة ومرعبة في بعضها.

بعض مواضيعها من الغرابة على ثُلّة من الناس؛ فيقوم بتكذيبها لمخالفتها لقيمنا المجتمعيّة رغم واقعيّتها وحقيقتها.

أنّها جدليّة في بعض القصص، مما يفتح المجال لأن يقوم المجادلون بالتشكيك في التفاصيل، رغم أنّ الغالبية تعلم علم اليقين بمصداقيّتها وواقعيّتها، وأنّها ليست أضغاث أحلام وخيالُ كاتب، وإنّما هي حقائق لا يقوم البعض بذكرها أو البوح بها خجلاً، معتبرينها عيباً أوخوفاً من (الفضيحة) كما يعتقدون، لابتعادها

عن المألوف وانسلاخها في بعض الأحايين عن المتداوَل والمعروف.

الحياة سخيّة بالأحزان.. مقتّرة بالمسرّات.. كثير من الحقائق المؤلمة نُخفيها.. عندما نضطرُّ إلى البوح بها، نقوم بتجميلها ونحن مسرورون وراضون.. رغم كذبنا الذي أجبرنا عليه البعض من غير حولٍ لنا ولا قوّة.

جرأتي قادتني بعد تفكير عميق أنْ أغوص في غمار هذا البحر الهائج المائج لبيان الكثير من الغموض والخفايا.. ناطقاً بالإنابة عن تلك الفئة الصّامتة.. في زمن طال فيه السّكوتُ والكتمان.. لأطلّ من أعلى الشفق المشرق.. فأريح القلوب الجريحة والحزينة.

الطرق الوعرة والمعوجّة بالتواءاتها وانحناءاتها لن تسلُك وتستقيم إلاّ باقتحام كبد الحقيقة المأفون ومجابهة عيون واقعها الرّامد، والغوص في أعماق

أسرارها الملتهبة، لكبح جماحها وحصارها كما الوباء، للقضاء على تلك المعضلات التي تتفشّى كما النار في الهشيم المتيبّس، وإعمال أعواد المحاريث بين طيّاتها، وقلب ما تخفّى واستتر تحت قشورها الواهنة.

سهول الأحلام المتواضعة تتكشّف أمام جبال الواقع المتطاولة في العُلا.. تترامى بين ظهرانينا.. ندير لها ظهورنا باستكانة وخوف.. نحسب أنّ فيه نجاتنا وحياتنا.. تطعننا بخناجر السمعة المسمومة.. نرتمي بين ثناياها باستسلام وقبول خفيّ فنقع في حضن الموت.. مشجّعين كلّ حاسد ونفس حصدَ الحقد ما نما فيها من غيْرة، حتّى أعمى بصرها وبصيرتها عن ربوع الإنسانيّة وأزاهير الحياة المتفتّحة.

تأفل الغمامة.. يزول الوهم والكتمان.. يفتضح أمر كلّ ظالم، لإعادة كلّ كرامة ضائعة في وحل الفاسدين.. علّي أنفعُ بها الناس، واضعاً النّقاط على

الحروف بلا خوف أو وجل.. مزيلاً للأتربة والغبار عن وجه الحقيقة الصامت.. مؤكداً على حقيقة الأحداث المتدثّرة بالخوف الذي تعدّدت أشكاله، ولكنني اشتغلت على الصياغة الأدبيّة فيها راجياً أنْ أكون قد قدّمتُ ما هو نافع ومفيد.

المؤلف: **توفيق جاد**

الموت قاعداً

جلستُ على بلكونة منزلي الواسعة في الدور الثاني من البناية التي أسكنها بعدما صحوت من قيلولتي المعتادة.. أنظر إلى الشارع المار من أمام البنايات المرتفعة والمتقاربة نوعاً ما.. أنظر إلى حركة السيارات والمارّة دون تركيز أو تمييز.. أحسبني أراها ولا أراها.. أسمعها ولا أسمعها.. شارد الذهن مشتت.. هل أنا في حلم أم حقيقة..؟ أجلس على كرسيّ بلاستيكيّ أخضر اللون.. يقابلني كرسيٌّ أصفر اللون، مخصصٌ لزوجتي.. لقد تأخرتْ قليلاً لانشغالها بعمل فنجان قهوتنا المسائيّ.. فجأة امتلأ الكرسيّ الفارغ بضيف ثقيل.. أحسست بأنّه يجثو فوق صدري فضاق به.. تمعّر وجهي غضباً.. بدأت أتحسّس سطح حجر (الكربنتين) المجاور لي.. أتلمّس سطحه الخشن في مواضع والناعم الملمس في

أماكن أخرى.. لقد ميزّت ذلك كله.. أنا حيّ وأعرف أين أنا تماماً.. لكن ذلك الثقيل الذي اقتحم عليّ هدوئي وسكينتي، سيطر عليّ.. شلّ تفكيري.. أجبرني على الإنقياد خلفه من غير حول لي ولا قوة.. في غفلة منّي عن دورة الحياة، فرض عليّ حواراً لمْ أرِدْه.. أخرجني من واقعي إلى عالم اللاإرادة المجهول.. بدأت أنظر إلى ذاك الكائن الفرضيّ.. أستمع لمُهاتراته.. بدأ ينظر إليّ بطرف عينه الصغيرة بحجم الزبيبة، وابتسامةُ خُبثٍ ترتسم على شفتيه الكبيرتين.. تقارَب جفناي من بعضهما علّي أحسنُ النظر إلى وجهه القبيح ونظراته الحاقدة.. بادرني الدّميم الخِلقة قائلاً:

- ما بك..؟ مالي أراك تنظر إليّ بريبة واستغراب..؟
- من أنت أيّها القبيح..؟ أراك تمتطي أكتاف الحقد والضغينة...
- أنا..؟ ألا تعرفني..؟!

- أعرفك تماماً.. لم أتوقع قدومك بهذه السرعة أيّها الشيطان المشوّه الخلقة..!

- على رسلك.. فأنا ما جئتُ إلاّ لإسعادك في باكورة مسيرتك التي ستطلُّ عليك بنسائم الراحة وهناء العيش...

- وهل من مثلك سعادة..؟ ما أنت سوى قاتل جبان...

- سامحك اللّه.. لولا حضوري، ما جئت في مثل هذا الوقت تجلس مستمتعاً بشمس المساء والنظر إلى حركة النّاس والسيارات في هذا الوقت الجميل، ولما جلست تحتسي قهوتك مع امرأتك الجميلة...

- ولكنّني أجلسها في أيام العطل الرسميّة والإجازات..

- شتّان ما بين جلسة يوميّة وجلسة أسبوعيّة...

- ومع ذلك، فأنا أستمتع بعملي واحتساء قهوتي على مكتبي وبين زملائي...

- ولكنك الآن حرٌّ طليقٌ وتتحرك كيفما شئْت ومتى تريد...

- ولكن.. ألا ترى أيّها القبيح بأنّك أوقفت حركتي ونشاطي الجسماني..؟ أصبتني بشلل قاتل.. لقد أصبحتُ عنصراً خاملاً وبلا فائدة.. أظنّني أصبحتُ عالة على أسرتي.. عاديك عن نقصان أكثر من ثلث راتبي..!

اعتدلَ في جلسته.. جحظني بعينيه الحمراوين.. ازداد بشاعة.. فغر فاه.. وقال:

- أنت ناكر للجميل.. لقد أمّنتُ لك راتبا بلا عمل.. تنام متى شئتَ.. تصحو متى شئت.. تخرج وتعود متى أردت.. أنت الآن حرٌّ طليق كطائر فُتحَ له باب القفص الذي أغلق عليه منذُ زمن بعيد...

- ليس هذا ما أبحثُ عنه..! أريد أن أعمل.. أنا لستُ سجيناً كما تقول، فأنا بعدما مضى من عمري العقد

السادس، أصبحتُ أحوج ما أكون للعمل والحركة أيّها الوباء المُميت...

- يبدو أنّك ناكرٌ للجميل ولا تُقدِّر ما جاءك من النِّعَمْ.. إدفن كرسي الكسل المهتريء في بحرٍ لُجّيّ.. قم وابحث لك عن عمل جديد...

- وبم أعمل..؟ مَنْ يقبل برجل ستينيّ..؟ لن أستطيع أنْ أقوم بعمل غير وظيفتي.. وأحيطك علماً بأنني لن أستطيع أنْ أقبل بعمل وضيع، فأنا وصلتُ إلى منصب رفيع في عملي وإلى مركز إجتماعيّ مرموق...

- إذن.. إجلس في بيتك مع منصبك المندثر ومركزك البائد.. سأعود إليك بعد شهور ثلاثة أو أربعة لأرى ما وصلتَ إليه...

لم يُنقذني منه إلاّ صوت زوجتي الحبيبة وهي تقول وابتسامة ترتسم على وجهها النورانيّ: تفضل قهوتك يا

زوجي الحبيب.. لقد أحضرتُ لك معها قطعة من الشوكولاتة التي تُحبّها.

نظرتُ إليها باستغراب وكأنني لم أرها منذ زمن بعيد.. عندما تيقّنتُ منها وعدتُ إلى رشدي، ابتسمتُ لها بحبّ كي لا تنتبه لما أنا فيه.. بدأنا نحتسي القهوة التي خلت من السكر وأنا ألاطفها وكأننا نبدأ حياتنا الزوجيّة من تلك اللحظة.

غاب عني الدّميم الخلقة أربعة شهور كابدتُ خلالها لوعة المكوث في البيت.. اختلط ليلي مع نهاري.. فقدت التنظيم والترتيب الذي اعدته منذ أمد بعيد.. بينما كنتُ أجلس في ذات المكان بعد العصر، جاءني اللعين يمثّل الإستحياء والأدب، ليجدني وقد تحطّمتْ نفسيّتي.. هاجمني مرض السّكري والضغط.. حركتي أصبحت ثقيلة.. صلاتي أصبحتُ أؤديها على كرسيّ.. مشاكلي مع أسرتي كثُرتْ بسبب الضغط العصبيّ الذي بدأ

يسيطر عليّ.. انقلبت حياتي لدرجة أنني أصبحت أتمنى الموت لأريح وأستريح..

نظرتُ إليه باشمئزاز وضعفٌ يسري بين أوصالي.. قلتُ له بامتعاض وقرف:

- لقد أصبحتَ واقعاً مؤلماً في حياتي.. أنا أكرهك.. أخرج من حياتي بلا رجعة أيّها الخنزير البشع.. أنت الموت الأسود.. الشّرِس في حضورك.. تمتطي صهوة حلم قادم.. تقتله بثِقْلك وتُفنيه...!

نظر إليّ باحتقار.. صرخ في وجهي:

- لا خيار لك.. لقد بلغتَ سنّي التقاعديّ.. هذا يعني توقفك عن العمل والتزام بيتك.. ألا تعرف من أنا أيّها الأبله..؟

- أظنني بتُّ لا أعرفك..!

- بل تعرفني حقّ المعرفة.. أنا رفيقك للنهاية..... أنا مَنْ سيُلازمك ما تبقّى لك من العمر.. أنا قاتلك لا محالة.. أنا التقاعد.!

❖❖❖

الشّيطان ثالثهما

شرطة المدينة تندفع بثلاث سياراتٍ مسلّحة.. تعلوها الرشاشات والأفراد المدجّجين بالأسلحة الأوتوماتيكيّة ،الهراوات وقنابل الغاز المسيل للدموع.. يرتدون زيّهم الأسود والذي عُرِفوا به أنّهم قوّاتُ مهامٍ خاصّة.. تُغطّي رؤوسهم ووجوههم أقنعة سوداء لا تكشف إلاّ عن بصيص ضيّق ينشقّ في منطقة الوجه كأنهم غرابيل سود.. تظهر منها عيون تُشعُّ رجولة وعنفاً.. طبيعة عملهم تُحتّم عليهم أنْ لا يعرفوا الرحمة.. مهامهم خطيرة وصعبة.. لا يأمنون جانب أيّ شخص.. يسيرون بحذر شديد وخطط مدروسة حين يقومون بتنفيذ أيّاً من مهامهم.. يتلفّتون يميناً ويساراً كصقور تبحث عن فرائسها وأصابع إبهامهم تلامس الزناد استعداداً لاطلاق الرصاص بأسرع وقت.. لا يتكلّمون إلاّ بصوت صاخب يُرعب السّامع.. يمنعون أيُّ شخص من الاقتراب

لمسرح عمليّاتهم.. يُخلون المكان من كلّ ما يتحرّك إلاّ من مجموعتهم.

صَدَرَ لهم الأمر بالتّوجّه إلى بيت أبي سالم في الحيّ الشرقيّ من المدينة.. ذاك الحيّ الذي عُرِفَ عنه الهدوء والأمان.. بجاهزيّتهم العالية، انطلقتْ سياراتهم تشقّ شوارع المدينة.. صوت صافراتها يُنذر بالشؤم والخطورة.. يقف المارّة واجمين مشدوهين يُحاولون استطلاع الأمر رُغم أنّهم يعرفون بأنّ مهام هذه القوات سريّة وخطيرة.. دقائق قليلة، وإذا بهم ينتشرون كجراد صحراويّ حول البيت.. بخفّة ورشاقة الطير تحوقلوا حول البيت بعشوائيّة ومقدّمات أسلحتهم تتّجه إلى جميع الجهات.. البعض منهم يتّجه نحو البيت، والبعض الآخر معاكسين لهم وبشكل دائريّ وكأنّ مسّاحاً قام بتحديد مواقعهم.. يرصدون كلّ شاردة وواردة في المنطقة بحذر شديد.. خلا المكان من أيّ شخص

غيرهم.. الجميع ملتزمون داخل بيوتهم من شدّة الحر الذي حبس الناس عن الخروج، وعلمهم بعدم سماح هذه القوّات لأيّ شخص بالتواجد في منطقة مهامهم.

بهدوء وحذر، تقدّم قائدهم نحو بيت أبي سالم.. قرع الجرس.. أطلّ عليه شابّ أسمر البشرة، طويل القامة، واسع العينين أسودهما، كثيف شعر الرأس طويله، حليق الذّقن، يرتدي بذلة رياضيّة رثّة. أجال بصره نحو القوّة التي أدخلت الرّعب في نفسه فبدأ يرتجف خوفاً.. لم يَكَدْ ينبس بحرف حتى بادره أحدهم (وكان مرافقاَ للقائد) بإلباس رأسه بكيس أسود.. أسرع إثنان من القوّة لاقتياده إلى إحدى مسلّحاتهم.. قذفوه بداخلها مثل كيس القمامة.. في لحظات عجيبة خلا المكان من الجميع.

أبو سالم رجلٌ يكاد يكون معدماً.. يعمل بالحفريات بأجرٍ زهيد.. أنجب سالم وثلاث أخوات له.. الكبرى

كان اسمها أمل.. سالم يصغرها بعامين.. يسرى وسهام توأمان يصغرانه بسبعة أعوام. ذات مساء، خرج الوالد وبصحبته الوالدة فرح لزيارة أحد الأقارب.. وقفا على حافة الشارع ينتظران مرور الحافلة.. انفجر الإطار الأماميّ لسيارة كانت تمرّ من هناك.. انحرفت السيارة باتجاههما.. لمْ يستطيعا فرارا.. صدمتهما وأودت بحياتهما.. تركا خلفهما إرثاً ثقيلاً لابنتهما أمل والتي بلغت التاسعة عشرة وأخيها سالم.. قامت شركة التأمين بدفع مبلغ كبير لهما تعويضاً عن حياة والديهما.

أمل وسالم كانا قد تركا الدراسة بعد أن أنهى كلاّ منهما الصف الخامس الإبتدائيّ.. بدآ يسيّران حياتهم بقدر ما يستطيعان.. لم يكن لهم أقارب من المحارم.. أقرباؤهم وأصدقاؤهم، لم يأبهوا بهم.. بدأ التخبّط في تسيير أمورهم.. لديهم المال، ولكنّهم لا يُحسنون التصّرف به.. أمل، تُصدر تعليماتها لسالم

الذي يقوم بدوره بالتسوّق وشراء كلّ ما يحتاجونه.. يعتقدون واهمين بسعادة لا يعرفونها حقاً.. قررت أمل وسالم إخراج يسرى وسهام من المدرسة ومن مستقبل غامضٍ يتربّصُ بهما لاعتقادهما بأنّه لا فائدة تُرجى من تدريسهما.

أمل لا تخرج من البيت أبدا.. بدأت تسمن من كثرة تناولها للطعام ومن قلّة الحركة حتى ظهرت كامرأة أربعينيّة أنجبت العديد من الأولاد.. كرشها بدأ يتقدمها بترهل وبشاعة.. سالم بدأ يلازم البيت ولا يخرج إلاّ بناءً على طلب من أمل.. الصغيرتان تُساعدان بأعمال المنزل.. لا يأتي وقت العِشاء إلاّ ويكون التعب والإرهاق قد هدّهما..أمل تكلّفهما بما لا تُطيقان.. تُسرعان إلى النوم.. أمّا أمل وسالم، فيبقيان يتسامران حتى وقت متأخر من الليل.. فراغٌ ووحدة يعانيان منهما.. يأكلان ما لذّ وطاب من الحلويات والمكسرات.

تضخّم حجم أمل كثيراً.. ارتفع وزنها وانتفخ كرشها بشكل لافت.. ذات يوم وقبل الظهيرة، تعبت أمل وأصابها ألم شديد.. بدأت تصرُخُ من شدّة الألم.. سائل يُخالطه دمٌ بدأ ينساب من بين فخذيها حتى ظهر بعضه على الأرض من تحتها.. طلب لها سالم الدفاع المدني لإسعافها.. لمْ يقم بمرافقتها لرفض رجال الإسعاف.. مرّتْ ساعة، وإذا بقوّة رجال المهام الخاصّة يأتون لإلقاء القبض عليه.

حين وصلت أمل إلى المستشفى، قام طبيب الإسعاف بفحصها.. استدعى أخصائيّ النسائيّة والتوليد الذي أمر بنقلها إلى غرفة الولادة.. لقد كانت في حالة مخاض.. سألها الطبيب عن زوجها.. أجابته بأنّها لم تتزوج بعد.. إتّصل الطبيب بمكتب الأمن التابع للمستشفى.. أبلغه بأنّ حالة حمل وولادة غير شرعيّة موجودة في القسم..

طلب الشرطي أن يجري تحقيقاً، ولكن الطبيب طلب منه التريّث إلى ما بعد انتهاء الولادة.

أعطى الطبيب إهتماماً بالغاً بالوالدة والمولود رغم علمه بعدم شرعيّة المولود.. الطبيب يتعامل مع إنسانيّة الإنسان بعيداً عن الدّين والخلق.

سألها الشرطيّ عن الجاني.. أجابت بلا تردد: أخي سالم...!

_ وأين سالم الآن؟

_ في البيت..

_ وماذا أسميتِ مولودك؟

_ براء..

قام الشرطي بالإتصال بالمركز الأمني.. تحرّكتْ تلك القوّة فوراً وأحضرته مخفوراً.. بعد أيّام ثلاثة،

أصدر القائد (بعد أن أجرى تحقيقاً معهما) أمراً بترحيلهما إلى العاصمة.. قبل أنْ يتمّ الترحيل قام الضابط بسؤالها عن سبب فعلتهما فقالت بهدوء وبرود:

(كان **الشّيطان** ثالثنا).

❖❖❖

على خُطى الشّيطان

صوت أبي الحنون يجلجل في أرجاء البيت يستحثُّني على الإسراع بتجهيز نفسي لأداء فرض صلاة الجمعة الحزينة من رمضان في مسجد عمّار بن ياسر البعيد عن منزلنا والذي كلّما طلبتُ من والدي أنْ نصلّي في مسجد الصّحابة المجاور لمنزلنا، كان يقول لي:

أسكت يا ولد (واللّه هذا الشيخ أبو أحمد بَنام بخطبته، أمّا الشيخ أبو إياس اللّه ينوّر عليه، بفشّ الغلّ، وبظلني صاحي للآخر وبَفهم شو بحكي، وبعدين أبصر نلاقي محل نقعد فيه ولاّ لأ...؟!).

والدي الذي أحبّه ويحبني.. صديقي المقرّب كما أنا بالنسبة له.. أصارحه ويصارحني.. أسِرُّ له ويُسِرُّ لي.. أبثّ له همّي وشكواي.. لا أبالغ إنْ قلت بأنّ جميع أسراري مُختزنة في صدره.. فهو كاتم أسراري المؤتمن.

اقترب موعد تخرُّجي من الجامعة.. منذ أنْ بدأتُ عامي الدراسيّ الأخير وهو يستحثّني على الخِطبة.. كنت أقول له بأنني رسمتُ فتاة أحلامي في خيالي، وعندما ألتقيها سأسعى لأنْ تخطبها لي.. فهي حلمٌ مرسومٌ بمخيّلتي.. أمّا الزّواج التقليديّ فأنا أرفضه ولا أستحسنه.. يضحك أبي ويقول لي:

يبدو أنّ مشوارك مع العزوبيّة سيطول كثيراً يا صديقي الحالم...!

أنهيت ارتداء ملابسي التي اخترتها بعناية.. كيف لا والجمعة عيد عندنا نحن المسلمين.. والحقُّ يأمرنا أن نأخذ زينتنا عند كلّ مسجد.. سرّحتُ شعري الذي بدا كخطوط متوازية لامعة من (الجل) الذي أستخدمه حين أقوم بمشوار هام.. رششتُ من عطري الفرنسيّ المفضل.. ذهبتُ إلى (صديقي وحبيبي) رششتُ عليه من عطري.. ضحك وقال:

لا تضحك عليّ برشة عطرٍ يا صاحبي.. هيّا.. فلننطلق راشدين.. بعد أداء صلاة الجمعة سأشتري لكم إفطاراً إحتفالياً في هذا اليوم الفضيل.

عندما وصلنا إلى السيّارة سألته مداعباً:

- أتحملُني أم أحملك..؟
- بل ستحملنا السيّارة.. ولكن، عليك أنت أن تقود...

ضحكنا.. انطلقنا وأنا أقود على مهل.. كان ينظر إليّ بطرف عينه اليسرى، والأخرى تكاد أنْ تخترق ساعة يده.. أعرف بأنّه يستحثّني على الإسراع، ولكنني تجاهلتُ رغبته.. إحساس غريب بدأتُ أشعر به.

بصعوبة استطعتُ أن أجد مكانا لاصطفاف سيارتي.. دخلنا المسجد لنجد مكانا في الصفوف الأخيرة.. الإزدحام في المسجد أجبر المصلين على التلاصُق الشديد.. قمنا بأداء سنّة تحيّة المسجد على عجل لأن

الخطيب كان قد صعد المنبر وبدأ المؤذن برفع الأذان الثاني.

جلسنا نُصغي إلى ذاك الإمام الذي حدد موضوع الخطبة عن التسامح والإصلاح.. في تلك اللحظة، لفت انتباهي دخول شابّان ملتحيان.. يلبسان ملابس فضفاضة وطويلة إلى ما دون الركبتين.. بدءا بتخطي رقاب المصلّين.. يقلّبان ناظريهما في كلّ اتّجاه.. يتقدّمان إلى الأمام حتى اقتربا من المنبر.. افترقا وتباعدا.. انحرف أحدهما يميناً واتّجه الآخر يساراً.. لا أدري ما معنى عبوسهما الشديد الذي كان واضحاً على محيّاهما.. انقباضٌ في صدري بدأتُ أشعر به من منظرهما وحركاتهما.. جلسا وبدآ ينظران حولهما، لا إلى الخطيب، بل في أنحاء المسجد.. وما هي إلاّ دقائق قليلة، وإذا بأحدهما يرفع يده ناظرا إلى الآخر.. أشار

بإصبعه السبّابة وكأنّه يعدّ.. ثمّ أتبعه الوسطى ثمّ البُنْصُر.

مؤكدٌّ أنّ حركته كانت إشعاراً ورمزاً للبدء بذاك العمل الإرهابيّ المخيف.. بلحظة وسرعة رهيبة.. إنفجر المسجد.. لمْ ألحظْ منذُ تلك اللحظة سوى وهج شديد يكاد يفوق وهج البرق، وصوتٌ يفوق صوت الرّعد.. ارتفعت الأجسام البشريّة والمصاحف والكتب الدينيّة وكلّ ما في المسجد مختلطة في الهواء.. بلحظة لا تُنسى كان كلُّ شيء يرتفع بشكل مرعب.. منظر أحسبه مشهداً من فيلم مرعب.. كان هذا آخر ما شاهدته منذ تلك اللحظة المشؤومة.. لحظة لن تزول من مخيّلتي ما حييت.. الذاكرة البشريّة تستطيع أنْ تخزّن مليارات المشاهد.. ربّما تمحو بعضاً من مخزونها وتقوم باستبداله بمشاهد أحدث.. هناك مشاهد لا يمحوها تقادم الزمن أو تجدّد الأحداث.. أمّا هذا الحدث، فقد احتلّ منزلة

وحجز موقعاً في ذاكرتي تعجز عن محوه الأيام والأحداث مهما قست أو كبرت...

أفقتُ من غيبوبتي في المستشفى لأجد صديقي وحبيبي يُمسك بيدي اليمنى يقبّلُها ودموعه الغالية على قلبي تنساب بحرارتها الدافئة على يدينا فتبلّلها.. أحسَّ بأنني بدأتُ أصحو.. فقام يطبع قبلاته على رأسي ويقول:

حسبنا اللّه ونعم الوكيل.. صبراً يا ولدي.. صبراً يا صديقي.. لقد امتحننا اللّه وما علينا سوى الصبر والدعاء.. لا تقلق يا صديقي فستكون بخير بأمر اللّه.. فقاطعته متسائلاً:

- وكيف أنت يا والدي الحنون..؟
- الحمد للّه أنا بخير..
- ألمْ يصُبْكَ أيّ مكروه..؟

- الحمد لله.. فقط بعض الخدوش التي لمّ تستدع علاجاً..

- وما الذي حصل يا حبيبي..؟

- ارتح واسترخِ الآن وسأشرح لك لاحقاً بعد أنْ يمنُّ اللّه عليك بالسلامة...

بعد أيّام ثلاثة كابدتُ خلالها آلام انعدام الرؤيا بسبب العصابة التي وضعها الطبيب على عينيّ.. تعطّل نظري وعملت مخيلتي.. أوهام وخزعبلات بدأت تتناوب عليّ.. لا أميز الليل من النهار إلاّ من أصوات الناس نهاراً ومن سكون وهدوء تام ليلاً.. فما يفصل المعاش عن اللّباس هو الأصوات والحركة.. جاء الطبيب.. بدأ يُمازحني ويداعبني.. أعلمني بأنّه جاء ليزيل العصبة عن عينيّ، فقد أصبحتُ بغنى عنها.. طمأنني.. دعاني لأن أصبر وأحتسب لأنني فقدتُ بصري من شدّة الوهج، ومن المستحيل أن يعود لي بصري.

هزّني الخبر.. كان كوقع صاعقة أخرى عليّ.. لمْ يخفّف من روعي سوى تلك اليد التي احتضنت يداي.. أنا أعرفها تماماً.. هي يد الحبيب الذي آنسُ له.. يعيد لي روحي والأمان.. يدُ من أشعر بأنني أتسيّدُ العالم حين يلمسني أو يحدّثني.. إنّه أبي وصديقي الحبيب...!

أزال الرباط عن عينيّ.. حاولت أنْ أفتحهما فلمْ أستطع.. تملّكتني رغبة عارمة لأنْ أبكي.. وأبكي.. وأبكي.. لأنفّسَ عمّا يعتصر دواخلي من ألمٍ وحسرة. أبي، لمْ يتمالك نفسه.. أجهش ببكاء شديد لدرجة أنّ صوته اعتلى.. بدأ الحاضرون بمحاولة تهدئة روعه.. صاح بأعلى صوته:

ليتهم قتلوني قبل أن أرى ولدي وصديقي بهذه الحالة.. ويلٌ لهم من اللّه.. لا بدَّ من يوم الحساب.. سأطلب من اللّه أن يفقأ عيونهم.. سأطب منه أنْ يحشرهم عمياناً كما عموا ولدي.

من شدّة حزني على والدي، بدأتُ أواسيه.. تناسيتُ آلامي لأهوّن على حبيبي وصديقي.. في مثل هذه المواقف تثْبُتْ الرجال.

صبري واحتمالي هدّأ منْ روع والدي.. جلس على حافة السرير.. بدأ يواسيني تارة ويحدّثني عمّا جرى تارة أخرى ويداه تحتضنان يدي.. يفركها بلطف وحنان.. أمّي تحتضن يدي الأخرى وتمسح بخدّها على وجنتيّ.. دموعها تنساب على وجهي فتخفف بدفئها من ألمي.. صمتَ والدي قليلاً ثم عاد إلى الحديث قائلاً:

قريباً يا صديقي، وبعد أنْ يمنّ اللّه عليك بالشفاء، سأقوم بتزويجك من فتاة جميلة تُعينك على الحياة.. فقط عليك أنْ تُعجّلْ بمقاومة المرض لتعود لنا بصحّة وعافية....

ابتسمتُ بصعوبة علّي أريحه قليلاً.. أخذتُ شهيقاً طويلاً.. أتبعته بزفيرٍ أطول منه، ثمّ قلتُ له:

يا والدي ومهجة قلبي.. يا قرّة عينيّ ونورهما.. يا روحي وحبيبي:

أقدّر ما تشعر به أنت ووالدتي الحبيبة.. كمْ تمنّيتُ أنْ ألبّي رغبتكما بزواجي.. كمْ تمنّيتُ أنْ أسعدكما برؤية عروسي وأبنائي.. كمْ حلمتُ بأنْ أراكما تداعبان أبنائي وتسعدانهما.. ولكن يا والدي، أنت تعلم بأنّ عروسي أرسمها بمخيلتي.. وعدتُك منذُ شهورٍ خلت بأن أخبرك عنها حين أراها.. ولكن.. أنّى لي أنْ أراها بعدما فقؤوا لي نور عيْنيّ...؟!

❖❖❖

البكارة

أمّ (وطفة)، امرأة هزيلة البنية.. قصيرة القوام.. مليحة الوجه رغم أنّ الشمس قد لوّحتها بسمار غيّب بين طيّاته مسحتها الأنوثيّة فبدت معالمها ضائعة ما بين الذّكورة والأنوثة.. تلبس ثوباً فضفاضاً يتّسع لها ولامرأة أخرى تكبرها حجماً.. هدّها المرض، مما جعل حركتها تُبطيء وكأنّها امرأة سبعينيّة، رغم أنّ عمرها لم يصل إلى العقد الثالث بعد.. أنجبت ابنتها الوحيدة قبل خمس سنوات.. لا تكاد تستطيع الإعتناء بها من تكرار مرضها وشدّته.. حملت مراراً وكانت في كلّ مرّة تُجهضُ في بداية حملها.. اضطرّ زوجها قبل عام، وبتوصية من الدّاية أم مسعود أن يأخذها إلى مستشفى المدينة الذي يبعد عن عزبتهم الصغيرة لأكثر من خمسة وعشرين كيلو متراً.. بعد إجراء الفحوصات التي استمرّتْ لأسبوعٍ كاملٍ.. قرّر الأطباء استئصال رحمها..

عادت من المستشفى منتظرة أنْ يتحسّن وضعها الصحيّ، إلاّ أنّ صحّتها كانت في تدهوُر مستمرّ.

اعتادتْ رعي الأغنام ترافقها ابنتها الوحيدة منذُ بدايات حياتها.. تلعب الطفلة بالحجارة الصغيرة حيناً، ومع الأغنام أحياناً أخرى.

(حنكش) والد وطفة، كما كان يلقّبه أهل العزبة والتي لمّ يزدْ عدد سكانها عن المائة بين رجال ونساء وأطفال، كان رجلاً قصيراً لا يتجاوز طوله المتر ونصف المتر.. سميناً حتى بدا كبرميل ممتليء يتحرّك بصعوبة.. إذا سار لمسافة قصيرة، لا يكاد يلتقط أنفاسه.. يُسمع صوت شهيقه وزفيره من مسافة قريبة.. سيجارته لا تكاد تبتعد عن شفتيه السوداوين وشاربه المُصفرّ.. يُمضي نهاره يتنقلُّ بين بيوت العزبة على ظهر حماره المكتنز مثله.. يُسافر على ظهر حماره بين فترة وأخرى ليبيع منتجات نِعاجه السمينة إلى تاجر بالمدينة.. اكتنز

الكثير من الأموال من تجارته بالشّياه ومنتجاتها، ولكنّه كان شديد البخل على بيته وعلاج زوجه المتعبة والمريضة.

وطفة ابنة الخمس سنوات، بدأتْ تسرح مع الشياه قريباً من المنزل بدلاً من أمّها التي باتت لا تستطيع الخروج للرعي.. قام حنكش بالإتّفاق مع جارته أم حامد على حلب الشياه وصنع منتجات الألبان من حليبها، مقابل أجرٍ زهيد تستلمه بعد أن يقوم ببيع منتجاته لتاجر بالمدينة.. هكذا كان اتّفاقه معها.

في صبيحة يوم ربيعيّ، وبعد انبلاج الفجر النديّ، خرجت وطفة مع شياهها للرعي.. تقودها كراعٍ متمرّس.. تلبس فستاناً يضيقُ من الأعلى ويتّسع عند خصرها.. لا يكاد يصل طوله إلى كعبيها.. رثٌ مليءٌ بالبقع السوداء.. تلوّن بألوان الطّيف فبدا كلوحة عشوائيّة رسمها رسّام مبتديء.. تحمل زوّادتها على ظهر

حمار صغير تجرّه بحبل قصير.. قضت يومها في الجبال مع شياهها تستمتع بجمال الطبيعة والطقس الربيعيّ.. عادت في المساء لتجد حركة دؤوبة حول بيتهم.. نساء تخرج وأخريات يدخلن.. رغم قلّة أعدادهنّ إلاّ أنّ حركتهنّ كانت تدلّ على وجود خطب ما.. اقتربت راكضة لاهثة.. بدأت تسمع أصوات النّحيب.. تبيّن لها موت أمّها.. اندفعت داخل بيتهم المتواضع تبحثُ عن والدتها.. أخبروها بأنّها ماتت بعد خروجها للرعي بوقت قصير، وقاموا بدفنها بعد صلاة الظهر.

وتمضي الأيّام والشهورُ والسنونُ ثقالاً على كاهل وطفة التي لا تعرف كيف تمرُّ عليها الأيّام.. دورة حياة روتينيّة تتكرّر معها كلّ يوم.. حياتها بسوداويّتها وروتينها القاتل تمضي بلا حساب أو هدف.. صديقها المقرّب هو حمارها الذي سمّته (الأدعج) وذلك لشدّة سواد عينيه واتّساعهما.. لقد أخبرتها بتلك الصفة أمّ

حامد فاستخدمتها كُنية لحمارها.. تكلّمه ولا تنتظر منه إجابات.. عندما تملُّ من التحدُّثِ إليه، تنتقل لتُحدّثَ شياهها أو تلاعبها.. أصبحت قويّة البنية من التنقل بالجبال والأودية ،حتى اعتادت أن ترمي الحجارة الصغيرة على الشياه لتتحكم في تغيير وجهتها وعدم الإبتعاد عنها.. بدت أنثويّة البنية، ذكوريّة الصّفات.

بكارة في عقلها وتفكيرها.. لمُ تُحاول أن تنمّيها أو تطويرها.. اكتفت بالعيش ضمن هذا المحيط الروتينيّ الحيواني، فكانت كالأنعام أو أضلُّ سبيلا.. دابة في هيئة إنسان.

عندما تعود من الرعي باكراً، تذهب إلى دكان أبي طايل القريبة من منزلهم.. تشتري قطعة من البسكويت أو الشوكولاته.. تقف أمام الدكان تأكلها على مهل.. تنظر إلى البنات.. ترى فيهنّ جمالاً غير مألوف لها.. نظرات الحسرة تشقُّ عينيها.. الغريزة الأنثويّة أحياناً

تتفجر بداخلها وأحياناً غريزة الأطفال تحرّك من طبيعتها.. تبقى ساكنة لا تؤتي حراكاً.. تعود إلى المنزل والأسى والحرمان رفيقاها.. تدفنهما في قلبها.. تُسرع إلى فراشها، وسرعان ما تغطُّ في سبات عميق.. تأكل وتشرب وتنام كما الأنعام...

ذات مساء، أفاقت من نومها.. تشعر بآلام في بطنها.. ذهبت إلى بيت الأدب.. وجدت قليلاً من الدم قد انساب من بين فخذيها ليظهر على بنطالها.. خافت.. أسرعت إلى أمّ حامد تُخبرها عن وضعها.. ضحكت أمّ حامد بفرح يرتسم على محيّاها وقالت لها:

- هذا الدم يا ابنتي هو دلالة خير ونضج لك، وهو ينزل من الفتاة حين تبلغ سنّ البلوغ فتبدأ بالحيض...

- وما هو الحيض يا خالة..؟

- هو نزول هذا الدم كلّ شهر مرة، وهذا يعني أنّك تستطيعين الحمل والإنجاب عند الزواج.. مبارك يا ابنتي

فقد نضجت وكبرت وصرت صبيّة.. وسأشرح لك كيف تقومين بتنظيف نفسك وماذا ستفعلين في مثل هذه الحالة.

كلمات أمّ حامد انطبعت في عقلها.. تتذكرّ أقوالها كلّما داهمتها عادتها الشهريّة.. لم تكد تبلغ السابعة عشرة من عمرها، حتّى ألمّ بوالدها مرض قضى عليه بزمن قصير.. لقد ترك لها الكثير من المال والحلال.. قررت أن تستأجر راعياً للغنم وثلاث نساء لمتابعة أعمال منتجات ألبانها.. طلبت من أبي طايل أنْ يقوم بتوريد منتجاتها إلى تاجر المدينة مُقابل أجرٍ تدفعه له كلّ آخر شهر.

قررت أن تذهب إلى المدينة لشراء بعض الألبسة.. غريزتها الأنثويّة توقدّت نارها.. بدأت تنهشها بعنف.. انطلقت إلى المدينة التي لا تعرفها ولا تعرف عنها شيئاً، حاملة معها بكارتان، هما بكارة العقل والجسد.

ركبت في صندوق سيّارة أبي عليٍّ، والتي كانت تنقل الرّكاب والبضائع للمدينة، بواقع مرتين في اليوم.. مرّة في الصباح وأخرى بعد صلاة الظهر.. نزلت في مكان وقوف أبي عليٍّ بوسط المدينة.. سارت على غير هدىً تتنقل من شارع إلى آخر.. تنظر إلى البنايات الشّاهقة مبهورة بارتفاعاتها.. تنظر في وجوه المارّة وكأنّها ترى الناس لأول مرة في حياتها.. نظراتها تصعد من الأرض حتى تُطاول السماء غرابة.. انتبه لها أحد المتسكّعين.. راقبها وراقب حركاتها (التي تنمّ عن انبهارها) لدقائق قليلة وكأنّه يقرؤها.. اقترب منها ووكزها في كتفه وكأنّه لا يراها.. أوقع نفسه أرضاً.. نهض معلناً أسفه عمّا حصل فقال لها:

- آسف.. صدّقيني لمْ أنتبه لك...
- لا عليك...

- أنت ترين زحمة المارة واكتظاظ السوق.. صدقيني أنّ السير هنا متعب...

- ولكن المدينة جميلة... (وبدأت تنظر إلى البنايات بتعجب واستغراب)!

- يبدو أنّك زائرة من خارج المدينة...

- نعم.. أنا من العزبة...

- وهل تحتاجين أيّ مساعدة..؟ أنا أعرف كلّ دهاليز وشوارع المدينة...

- هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها المدينة طيلة حياتي...

- وما هو سبب الزيارة الآن..؟

- جئتُ لأتعرّف على المدينة وأشتري ما يطيب لي...

- وهل تملكين المال لذلك..؟

- طبعاً.. لديّ الكثير من المال ورثته عن أبي...

- أرى أنّك فتاة جميلة وطيبة القلب.. لذا.. سأقوم بمساعدتك، واعتبريني صديقاً بعثه اللّه لك كي يخدمك ويقوم بتلبية جميع طلباتك...

ابتسمت لسماع كلمات الإطراء.. نظرت إليه وقد طار قلبها فرحاً.. شكرته معتذرة عن عدم تلبية طلبه.. أصرّ عليها وكأنّه فاعل خير، معلناً لها بأنّه سيكون خادمها الأمين.. وافقت سريعاً.. كلماته كانت تأسرها وتشدّها إليه.. لم تعتدْ أن تخاطب الشباب أو أن تتعامل معهم..! قال لها بأنّه سيرتب كلّ شيء حالاً.. أحسّت برغبة في محادثته.. سألته عن برنامجه وخططه فقال:

- علينا أولاً أنْ نشتري لك لباساً جميلاً يليق بك.. هذا الجمال الفتّان يليق به أحلى الحلل.. ثمّ، إنْ أحببتِ، سأرسلك إلى صالون تجميل لتزيينك وتصفيف شعرك.. جمالك الآسر هذا يجب أن لا يبقى مدفوناً هكذا.. بعدها نذهب لتناول طعام الغداء في مطعم راقي.. ثمّ،

يجب عليك أن تستريحي، ونعاود الخروج في المساء لنبدأ رحلة حول المدينة...

- ولكنني لن أستطيع أن أتأخرّ لأن أبا عليّ سيكون قد غادر ولن يعود اليوم...

- لا عليك.. السيارات هنا كثيرة وأجورها زهيدة...

- إذن.. هيّا بنا... (وفرحٌ غامرٌ يداعب قلبها، وسرورٌ بادٍ على محيّاها).

- ولكن عليكِ أولاً أن تحجزي غرفة في الفندق، كي تستحمّي قبل أن تلبسي الملابس الجميلة والتزيُّن بالصالون.. هيّا إلى الفندق...

قادها كشاة يسيّرها كيف يريد ومتى يريد.. حجز لها غرفة بالفندق.. ذهب بها إلى معرض فخم للملابس.. طلب من إحدى العاملات في المحل أن تُلبسها أجمل الثياب.. خرجت من غرفة القياس تزهو بنفسها.. لقد تفجّرت فيها تلك الغريزة الأنثويّة.. رأت نفسها ملكة

ومن أجمل النساء.. خرج بها إلى أحد الصالونات.. طلب من صاحبة الصالون أنْ تعمل لها (مكياجاً ومنكير وبدي كير وتصفيف لشعرها).. غاب عنها ما استحقّ العمل من وقت.. عاد ليراها سيدّة النساء، وفي عينيها فرحة تُطاول السماء.. أخذها لأحد المطاعم.. طلب لها ما لذّ وطاب من الطعام الذي لمْ ترَ مثله ولا أطيب منه من قبل.. سألها:

- هل أنت سعيدة..؟ هل أعجبك ما قمنا به..؟

- نعم.. هذا أسعد يوم لي في حياتي.. أنا اليوم أطير بين السُّحب في السماء.. هي أعظم فرحة أعيشها اليوم.. لقد كنت ميتة في العزبة.. أظنني كنت ميتة في العزبة.. هذا يوم مولدي...!

- أنا سعيد بما أسمع.. ولكن، هذه هي البداية، والقادم سيكون أجمل وأسعد.. أمّا الآن فعلينا أن نذهب إلى الفندق لترتاحي.

هناك.. أصرّ على إيصالها لغرفتها، وحتى يشرح ويوضّح لها برنامجه القادم.. لمْ تتردد كثيراً بالموافقة.. لقد أسَرَها بكلّ ما يعمل.. نقلها من عالمها المأفون إلى عالم التيه والغرابة.. دخلا الغرفة.. جلس قبالتها.. طلب منها المال للتحضير للرحلة القادمة.. قال بأنّ عليه أنْ يدفع لهم المال لحين راحتها والخروج معاً.

وافقت وأعطته كلّ ما بقي معها، إلاّ من دنانير قليلة أبقتها في حقيبتها التي ابتاعتها من محل الأحذية حين اشترى لها زوجين من الأحذية.

جلس يلاطفها.. يُسمعها من جميل الكلام ومعسوله.. حرّك فيها مشاعر الأنوثة، كشجرة فاجأها إعصارٌ فأربكها.. زادَ وجمّلَ، حتى باتت ترغبه كذكرٍ قريب منها.. دنا منها.. حتى ارتجفت فرائصها.. حاولت أن تصدّه بلطف.. تتمنع وهي الرّاغبة.. أطبق كفيّه على

وجنتيها.. فالتصقت به تحتضنه بشدّة.. قبّلها من فيها، فخرّتْ طائعة مستسلمة لشهواتها.. نال منها ما أراد.

أجهشت بالبكاء، حين تذكّرت ما قالته لها أمّ حامد منْ أنّها قد تحمل حين يعاشرها الرّجل.. لطّف من أجواءها وقال:

- لا تخافي من الحمل يا حبيبتي.. لديّ دواء يمنع أيّ حملٍ.. أرجو أن تكوني قد سررت وسعدت معي...!

أصبحتْ في حيْرة من أمرها.. ما الذي فَعَلَتْهُ..؟ ما الذي جرى..؟ لِمَ أقدمتْ على فعل هذه الجريمة النكراء..؟

وبينما هي في سرحانها وغيابها عن الدنيا، استأذنها بالخروج وقال لها:

- ارتاحي الآن يا حبيبتي، وسأعود لك كي نخرج بعد أن ترتاحي...

نظرتْ إليه بعيون باكية معاتبة.. هزّت رأسها بالإيجاب.. غادر والفرح يملأ قلبه الأسود.. لقد قام بفعله **الشيطانيّ**، واكتفى.

غطّت وطفة في نوم عميق.. لقد هدّها التعب.. أفاقت في صبيحة اليوم التالي مذعورة.. هرعت إلى النافذة.. أزاحت الستارة.. كانت الشمس قد قاربت على انتصاف كبد السماء.. تساءلت عن صديقها الذي لمْ تعرف اسمه.. نزلت إلى الإستعلامات تسألهم إنْ كان قد سأل عنها أيُّ شخص.. أجابوا بالرفض. صاعقة نزلت على رأسها.. فهمت أنّ ذاك **الشيطاني** استغلّها وأخذ مالها وشرفها.. عادت إلى عزبتها التي جاءت منها ببكارتين، محتفظة ببكارة العقل وفاقدة لبكارة الجسد (التي ترمز إلى العفّة والطهارة في مجتمعنا الشرقيّ والعربي...!).

❖❖❖

السّاحِرَة (أمْ كُشّة)

ابنة الخامسة (فِتْنَة)، لمْ تكدْ تقترب من نهاية سنتها، حتى بادرت والدتها صيتة المضطهدة من زوجها وأولادها إلى الإسرار بخوف ووجل إلى والدها، تطلب منه أنْ يقوم بتسجيلها في مدرسة القرية.. تلك القرية الجبليّة الوادعة.. المنقطعة عن العالم لبُعدها عن باقي المناطق والمدن.. أقرب بلدة لها تبعدها بحوالي العشرة كيلو مترات.. عدد سكانها قليل بسبب كثرة الهجرة منها، وعدم وجود الماء والكهرباء وباقي الخدمات فيها.

نظر أبو إسحاق لزوجته بامتعاض وبطرف عين.. أزاح بصره عنها ناظراً من باب غرفته المُشْرع إلى الأفق البعيد.. أدار وجهه وغادر المنزل.

عاد الأب (هاجم) القاسي بعد ساعة من الزمن والكشرة لا تفارق محيّاه.. يجرُّ خلفه كُرّاً صغيراً (ابن الحمار).. يشدُّه من رَسنٍ طويل.. ربطه أمام المنزل، وقال لزوجته:

- لقد قررتُ أنْ أُريح ابنتك فتنة **الشيطانة** من العمل في المنزل ومن تعب المدرسة...

- وكيف ذلك أيها المغوار..؟

- لقد اشتريتُ لها كُرّاً بدينارين لتبدأ منذ الغد باستخدامه لنقل الماء من العين...

- هذا يكون في المساء.. أمّا في الصباح فبإمكانها أنْ تلتحق بالمدرسة...

- لا دراسة ولا تدريس لها عندي.. ستكون كباقي أخواتها.. لن أقوم بإرسالها لتتعلم الكلام الفارغ والهمالة.. وهذا كثير على (أمْ كُشّة).

- وهل التدريس همالة وكلام فارغ..؟

- نعم.. ستتعلم أن تكتب للشباب وتتّجه إلى ما يسمى الحب، وهو الهمالة بعينها...

- واللّه حرام عليك ما تقوله...

- حتى الأولاد قمتُ بإخراجهم من المدرسة، وها هم يعملون، وأمورهم تسير على خير ما يُرام.

بيتٌ بناه أبو إسحاق وزوجته على الجهل والنكد.. البيت الخارب هو ذاك البيت الذي يخلو من الألفة والوفاق..ألفاظهم في تعاملهم لا تتعدى الشتائم وسبُّ الذات الإلهيّة وما إلى ذلك.. تعاملهم خارج المنزل، يروق للناس، حتى ظنّوا أنّهم نموذجيين في بيتهم.. الحقيقة أنّ منْ لا خير فيه بين أهله، فلا يُرجى منه خيراً للناس.

بدأتْ فتنة حياتها كما أمر بها والدها.. تذهب صباحاً مع كُرّها الصّغير إلى العين تملأ الماء.. تُحمّله على ظهر الكرّ.. تضربه بعصاها القصيرة على مؤخرته.. تقول له (حا حا)، فينطلق يطوي الطريق، إلى

أن يصل إلى مكان تفريغ الماء.. ينتظرها حتى تصل.. دائماً كانت تتأخر بسبب انشغالها بالحديث مع باقي البنات (الملّايات).. تُفرغ الماء، ثمّ تضربه على مؤخّرته فيعود إلى مربطه.

تذهب فتنة لمساعدة أمّها في أعمال المنزل المختلفة.. دائماً ما تنهرها أمّها بالزجر والضرب والألفاظ النابيّة والبذيئة، تستحثُّها على إنجاز أعمالها.. تبكي حيناً وتقوم بعملها بصمت أحياناً.

كبُرتْ فتنة وكبُرَ حمارها الذي أسمته (المزوزق).. أصبحت تذهب إلى العين تركبه ذهاباً وإياباً.. بات يحتملها والماء على ظهره.. تجلس من ساعة إلى اثنتين عند العيّن تملأ الماء وتحدّثُ البنات.. ديوانٌ بنّاتيّ لا يتعدى الحديث فيه القيل والقال وأحاديث تنمُّ عن افتقارٍ للعلم والثقافة.. وأحاديث عن فلانة وامتلاء رأسها بالقمّل والسيبان.. النظافة والعناية الجسمانيّة تكاد

تكون معدومة بين بنات حرمهنّ أهاليهنّ أبسط حقوقهنّ في الحياة.. لا لوم على من جهلت وعميت.. عند العودة، تسير الحمير كقافلة يتبع أحدها الآخر.. تركب فتنة على ظهر الحمار بشكل معكوس (صندل) لتُحدّث البنت التي خلفها (المزوزق) يعرف طريقه تماماً.. لمْ يكن بحاجة لأكثر من ضربة صغيرة على مؤخّرته وكلمة (حا حا) لينطلق راشداً إلى المنزل.. تمتلك الحمير ذكاءً وذاكرة مكانيّة يحسدن عليها.. في زمن الجهل تُحسد البهائم على أمور صغيرة.

بلغت فتنة من العمر السادسة عشرة.. لا تدري عن عمرها أو كيف تمضي الأيّام.. وفي ظهر أحد الأيّام عادت من العين، لتجد ابن عمّها راشد في زيارة لهم.. راشد الشاب سيء الخلق، قدمَ من قرية بعيدة لزيارة بيت عمّه.. رأى فتنة فتقدّم للسلام عليها.. ابتسمت

واستدارت خجلاً.. لم يكن في منزلهم سوى والدتها التي نهرتها وقالت لها:

سلّمي على ابن عمّك أيتها المخبولة. مدّت يدها خجلة.. شدّ عليها وغمز لها بعينه.. نفضت يدها منه وهرولت نحو أمّها لتساعدها.

عاد راشد من زيارته لبيت عمّه في اليوم التالي.. طلب من أبيه أنْ يزوّجه بها.. رفض الأب لعدم وجود المال لديه.. أصرّ راشد على أبيه وقال له:

إذهب إلى عمّي واطلبها فهو لن يكلّفك شيئاً وأنت تعلم بأنّ ابنة العم لا تحتاج مالاً ولا ذهباً.. (إبن العم بنزّل العروس عن الفرس).. وإنْ لم تفعل فسأزني بأخرى وأجلب لكم مصيبة كبرى وعاراً أنتم لستم أهلاً له..

انصاع الأب المحترم والذي يختلف عن أخيه بكلِّ شيء، لرغبة ابنه وتحت وطأة تهديده رغم أنّ ترتيبه الثاني بين إخوته.. طلب ابنة أخيه فزوّجه إياها بلا تكاليف.

كبرت (أمْ كُشّة) وهذا اللقب يُلازمها رغم إنجابها لعدّة بنين وبنات.. أكثر الناس أصبحوا يخجلون من مناداتها بهذا الإسم إلاّ زوجها.. هو أصلاً لا يحترمها.. يناديها بهذا اللقب وألفاظ مثل: يا بقرة، يا حيوانة، يا بهيمة، عاديك عن السباب بألفاظ وكلمات نابية، فلم تكن تختلف في حياتها عن الدّواب، تأكل وتشرب وتنام وتنجب.. نعم، تُنجب ولكنها لا تربي.. كما يقولون: (بتْخَلّف وبترميهم بالشارع)، وكذا الأب يعمل ويلهو ولا علاقة له بمن أنجبهم سوى إطعامهم والتكفل بمصاريفهم.. أصبحوا كما يقول الناس(أولاد شوارع).

شاء الله أن تتزوج ابنتهم البكر من رجل لا يبتعد كثيراً عنهم في سوء خلقه.. المشاكل في حياتهم الزوجيّة بدأت تطفو على السطح.. غيْرة وحسد واضح من (أمْ كشّة) لأبناء أسلافها الذين كانوا يختلفون تماماً عن أولادها وبناتها.

ازدادت مشاكل ابنتها مع زوجها.. نصحهم البعض أنْ يذهبوا بها إلى أحد (الشيوخ) المعالجين ليقضي على مشاكلهم.

لم يكن ذاك الشيخ أكثر من ساحر يأتمر بأوامر الجنّيّ الكافر (**الشيطان**) الذي يخدمه، وفي ذات زيارة له من ضمن الزيارات المتعدّدة والمتكرّرة، كانت (أم كشّة) ترقب ماذا يفعل هذا النصاب وماذا يقول.. قررت أن تجرب ذلك بنفسها لتوفّر من المصاريف المرهقة.

في مثل هذه الحالة، لا يمتثل الجنيّ لأوامرها إلاّ إذا أطاعته وكفرت.. كان عليها أنْ تضع أوراقاً من المصحف الشريف في الحذاء وتدوس عليه وأنْ تقوم بوضع أوراق قرآنيّة بين فخذيها كحفاظ لتنزل دماء دورتها الشهريّة النّجسة على تلك الآيات.. إنّه الأذى الذي بخروجه ترتاح النساء وتصحّ.. وبذلك يُصبح الجنيُّ عبداً مطيعاً لها في كلّ ما تريد.

انطفأ نور وجهها.. بهت لون بشرتها وازدادت اسمراراً.. جحظت عيناها لتخيف الناظر إليهما.. كُشَّتُها انتثرت على طرفي وجهها كقرد أو مسخ مخيف.. لمْ يَرُقْ لزوجها ما تفعله.. لمْ يستطع ثنيها.. تفاقمت المشكلات فيما بينهم.. طلّقها أولاً وثانياً وثالثاً، دون أن تتراجع وتعود لدينها وحياتها.

ازدادت الغيْرة في نفسها وتعاظم حسدها لأسلافها وعائلاتهم.. عُميَ بصرها وبصيرتها.. أقسمت أن تشتت

تلك العائلة وأن لا تبقي أحداً مع الآخر.. لمْ يأخذوا هذا الحديث على محمل الجد.. قليل العقل لا يأبه الناس بأقواله.. يعتبرونه سذاجة وهَبَلْ ليس أكثر.

لقد حاول اخوة راشد كثيراً إصلاح ذات البيْن، بينه وبين فتنة.. ضغطوا على أخيهم كثيراً لأنها ابنة عمّهم.. جميع محاولاتهم كانت تصطدم بالرّفض الشديد بسبب تعنُّت فتنة ومحالاتها فرض شروط لا تُحتمل.. باءت كلّ المحاولات بالفشل الذريع.. كيف لا وهي لا تعي ما تصنع.. السذاجة عنوانها.. الجهل طريقها.. التعنُّتْ والغباء أوصلاها إلى تلك الطريق المظلمة.

ذات مساء بارد من مساءات شهر شباط، كان الأب تيسير يُحضّر شنطته من أجل السفر إلى الخليج، لزيارة الأقارب والأصدقاء في رحلة استجمام ونقاهة بسبب كثرة انشغاله في عمله ومتابعة أمور أبنائه وبناته.. هو الأوسط بين إخوته، ولكنّه الأفضل تعليماً وثقافة..

لديه ولد واحد وأربع بنات جميلات.. كانوا الأفضل تحصيلاً في مدارسهم وجامعاتهم.. ربّاهم والداهم أفضل تربية فكانوا مثالاً لحسن الخلق والأدب.

تيسير يجاور إخوته الستة، فكان تجمعّهم يشكل حيّاً صغيراً.. بيته يتوسّط ذاك الحوش.. عندما يقوم أحد الأقارب أو الأصدقاء بزيارة لأحد الإخوة، يجتمع أكثرهم أو جميعهم في الحوش.. كثيراً ما كان الزائر يُثني على تيسير وأسرته.. يصفهم بأنّهم هم الأفضل تربية وخلُقاً بين الجميع.. هذا الثناء غرس عامل الحسد والغيْرة بين الأخوة ونسائهم خاصة، فأصبحوا الأكثر عرضة لهذا الحسد، ممّا خلق لتيسير وأسرته الكثير من المشكلات والمصادمات بسبب وبلا سبب.. كيف لا..؟ وهل يُرمى بالحجر سوى المثمر من الشجر..؟!

أبناء فتنة كانوا على العكس تماماً.. الأسوأ خُلُقاً.. الأدنى تعليماً.. بلا أدب ولا ذكاء يُذكَرْ.. هذا حدا بفتنة أن تباشر أعمالها السحريّة ضدهم.

أنجز تيسير تجهيز شنطته.. ذهب لينام كي يستيقظ باكراً.. لم يَكَدْ يغفو حتى سمع صُراخ إحدى بناته.. نهض من فراشه فزعاً ليستطلع الأمر.. وجد ابنته تهيج وعليها علامات اللاوعي.. اقترب منها.. احتضنها.. رفشته بقوّة أوقعته على الأرض.. بدأت تصرخ بأعلى صوتها.. صوتٌ خشنٌ كصوت الشباب كان يصدُرُ منها.. لم يكن هو صوتها.

في تلك اللحظة كان جميع من في الدار قد حضر إلى الصالون.. فجأة بدأت أخواتها بالصراخ وإطلاق كلمات يُفهم بعضها والآخر عبارة عن كلمات مبهمة.. استطاعت إحداهنّ أنْ تفتح باب البيت.. خرجت إلى الحوش.. تبعتها الباقيات.. ما هي إلاّ لحظات حتى ضجّ

المكان بالأعمام وزوجاتهم وأبنائهم وبناتهم ما عدا فتنة وبناتها.. بدأت أصوات تصدر من أخريات، وعويل بصوت عالٍ جداً.. اقترب أحد الشباب وقد احمرّتْ عيناه كوحشٍ مفترس.. يُزمجر وينظر إلى البنات يريد الإنقضاض عليهن.. اقتربت والدته لإبعاده فبدأت هي الأخرى بالصراخ واحمرّت عيناها.. تعاون الشباب على جزرهم وكبح جماحهم.. قوّتهم البدنيّة فاقت قدراتهم الطبيعيّة.. بدؤوا يرفعون صوت الأذان، ويقرؤون القرآن بصوت عال.. هدأ البعض، وأجلسوهم مرهقين مما حصل معهم.. استمر صراخ الآخرين فحضر بعض الجيران.. حين رأوا ما يحصل، نصحوهم بمتابعة قراءة القرآن حتى يهدأ الجميع، ثُمّ اقترحوا عليهم إحضار أحد الشيوخ لإخراجهم ممّا همْ فيه.

عاد الجميع إلى بيوتهم بعد أن هدأ الجميع وكان ذلك بعد انتصاف الليل.. تيسير قام بإلغاء سفره.. ونام الجميع وكأنّ شيئاً لمْ يكنْ.

في صبيحة اليوم التالي، تأخرّ الجميع في صحيانهم من نومهم بسبب هول ما حصل معهم وشدّة تعبهم.. أفاق تيسير وزوجه التي عاجلته بطلبها أن يُحضرَ ذاك الشيخ ليقوم بعلاجهم.. استدعى إخوته الذين أصرّوا على الإسراع بجلب الشيخ على أن يتحمّل الجميع تقاسم المصاريف.. حضر الشيخ الذي بدأ حديثه بأنّ عمله سيكون خالصاً لوجهه تعالى.. جمع كلّ المصابين وكأنّه يجمع فرقاء لإصلاح ذات بينهم.. بدأ يقرأ القرآن، وعندما بدأ يقرأ آيات الحسد والسّحر، باشروا بالصراخ بأصوات غير أصواتهم.. قال بأنّ هذا تلبّسٌ من الجنّ وسببه السحر.. أخذ يهدّيء من روعهم بآيات قرآنيّة.. اكتفى بهذه المرحلة بعد أنْ سكنوا.. خرج على

أن يعود في اليوم التالي.. بعد ضغط من الجميع، وعد بأن يعود في المساء.

لمْ يَعُدْ الشيخ في ذاك المساء.. اقترب موعد أذان العشاء.. بدأ الأولاد بالإنفجار كما حصل في اليوم الفائت، إلاّ أنّ الوضع كان أسوأ وأشدّ.

تيسير يقف حائراً مشدوهاً.. لا يعرف كيف يتصرّف وهومَنْ عُرِفَ عنه بأنّه (شوير) قومه.. فلا ترد شاردة ولا واردة إلاّ ويُستشار بها.. دائماً حلوله واقتراحاته عقلانيّة وإيجابيّة.. أمّا اليوم، فهو كمن يهيم على وجهه ولا يقوى على التفكير.. جُلُّ ما يقوم به هو النظر إلى المصابين.. دموعه المدرارة لا تتوقف عن الإنسياب على لحيته حتى تبلّلها.. يسألونه ويستشيرونه عمّا يصنعون..؟ ينظر إليهم شارد العقل.. يهزّ رأسه.. يُفرج كفّيه ويقول: لا أدري.. لا أدري..! افعلوا ما شئتم فلا رأي عندي.. ما أراه الآن، لمْ أرَهُ أو أسمع به طيلة حياتي.

حضر أخوه الكبير وقال له: يا تيسير.. صحصح وعد لنا.. نريدك معنا.. لا تبتعد في مثل هذا الظرف العصيب.. لقد أعطاني أحدهم رقم شيخ مختص في الرّقية وهو جامعيّ وليس مستشيخاً نصّابا أو ساحراً يدّعي المشيخة.. علينا الإتّصال به وإحضاره إنْ كان لا يستطيع الحضور.

بعد ساعة عصيبة، حضر الشيخ.. يحمل معه سمّاعة صغيرة موصولة بجهاز صغير.. طلب أنْ يُحضروا ثلاثة من المصابين في المرحلة الأولى.. بدأ يُسمعهم الرّقية الشرعيّة.. حضر الجنيّ.. كلّمه من خلال أحداهنّ.. اعترف الجنيّ بأنه من الصّابئة وأنّه يتلبّسها بأمر من الساحرة.. سأله عن اسم الساحرة، فأجاب بأنّها فتنة.. انصدم الحضور ونعتوه بالكذب.. ضحك الشيخ وقال:

لا عليكم سأكشف صدقه من كذبه حالاً.. أعرف بأنّ الجنّ يكذبون ولكنني اعتدتُ على التمييز ما بين كذبهم وصدقهم. نفخ في وجه الملبوسة وقال:

باسم اللّه.. عُدْ أيّها الكافر بأمر اللّه وضرب بلطف على وجهها.. غاب الجنيّ وعادت البنت تتكلم بلسانها هي وبحضور عقليّ كامل.

جلس الشيخ قبالة البنت وقال:

انظروا كيف سأكشف لكم إن كانت فتنة هي الساحرة أم لا..؟ ولكن .. منْ هي فتنة..؟ أجابوه بأنّها زوجة عمّ الأولاد سابقاً وابنة عمّ آبائهم.

ذكر الشيخ اسم اللّه وقال:

يا سحر سمر.. يا سحر ليلى.. يا سحر حليمة.. لم يحضر الجنيّ.. فقال الشيخ: يا سحر فتنة.. أحضر أيّها الجنيّ المتلبّس.. انتفضت الفتاه.. زاغ بصرها.. صرخت

وهمهمتْ فنطق الجنيّ على لسانها قائلاً: ماذا تريد..؟ فسأله الشيخ مرّة أخرى عن اسم الساحرة.. أكّد له بإصرار على أنّها فتنة هي من أرسلته، وأنّها هي الساحرة وقد حضّرته حين بدأت تقرأ القرآن في بيت الأدب النجس.. أمرته أن يتلبّس هو ومجموعة أخرى ما استطاعوا من أفراد العائلة.. عندها قال الشيخ:

أمّا في هذه فقد صدق الملعون.. وأمّا عن تلبّس البنات، فهو يأتي للأضعف بين الناس والفاقدين للهالة التي وضعها الله حول الناس لحمايتهم من شرّ الجن.

قال تيسير بأنّ بناته ملتزمات بعبادة الله من صلاة وصوم وقراءة القرآن وحسن الخلق فكيف يتلبسهن الجنّ..؟ أجابه الشيخ بأن مثل هؤلاء هم من يسعى لهم الجنّ الكافر وهم أممٌ مثلنا.. أمّا بالنسبة للإنسان السيء فإن **الشيطان** يتركه ليتفرّغ لشخص غيره يكون صالحاً كيْ يفسده.

بدأ الشيخ يأمر الجنيّ بالخروج من جسد الفتاة.. رفض الجنيّ ذلك معلّلاً عدم قدرته على الخروج خوفاً من تعذيب الساحرة له.. حاول الشيخ مراراً ولكنّ رفضُ الجنيّ كان مستمراً معلناً أنّه لن يخرج مهما كانت النتائج. هدّده الشيخ بالقتل.. هزأ بالشيخ قائلاً: أقتلني ولن أخرج.. قتلك لي أرحم من عذاب الساحرة.

عاد الشيخ وأمره بالعودة وأنْ يستكين بداخل البنت بهدوء وصمت وقال: لن أستطيع إخراج هذا الجنيّ ولكنني أعرف شخصا يقوم بقتله مقابل مبلغ كبير من المال.. إن أحببتم فأستطيع أن أكلّمه ليحضر ويخلّصكم مما أنتم فيه. بعد تداول، وافق الجميع على ذلك مع تقاسم التكاليف.. غادر الشيخ على أن يعود في مساء اليوم التالي.

جلس الجميع في صمتٍ رهيب.. تيسير يحدّقُ فيهم واحداً تلو الآخر، والعبرات تتساقط من عينيه كطفل

أصابه الوهن.. شارد الذهن مشتت الأفكار.. ركّز نظراته على أخيه الكبير الذي انتبه إليه فسأله:

- ماذا يجول في خاطرك يا أخي..؟
- واللّه إنني أفكّر في أمرٍ ما..!
- وما هو..؟
- أفكّر بأبي رُغال..!
- ومن هو هذا الرجل..؟
- لقد كان أوّل خائن في تاريخ العرب.. هو من أرشد أبرهة الأشرم على الطريق إلى الكعبة حين جاء ليهدمها.. مات في الطريق فأصبح العرب في الجاهليّة يقومون بالحج إلى الكعبة ثمّ يذهبون لرجم قبر أبي رُغال ويبولون ويتغوطون عليه..
- وما دخل ذلك بموضوعنا..؟
- أرى أنّ فتنة لا تختلف عن أبي رُغال.. هي أوّل خائنة لربعها وعشيرتها.. هي أمّ رُغال...!

نظر إليه سعيد (الأخ الأكبر) وقال:

على كلّ حال، نحن الآن في أمرٍ جلل.. علينا أنْ نحلّ مشكلتنا.. أمّا موضوع فتنة، فله كلام آخر لاحقاً.. وأنا أرى أنْ أبا عبادة ربّما يستطيع مساعدتنا حتى الغد.

نظر إلى ابنه الكبير وأمره أنْ يذهب لإحضار أبي عبادة.. عندما حضر، طلب واحدة من البنات التي كانت متلبّسة.. أقبلت.. بادرها يصفعها على وجهها بقوّة طالباً من الجنيّ أن يهدأ ويستكين.. تيسير ينظر مشدوهاً لما يرى.. لمْ ينبت ببنت شفة.. على عجلٍ تقدّم أخوها عليّ، ومنعه من ضربها ثمّ أمره بالمغادرة قائلاً له: أنت لست شيخاً.. الشيخ لا يضرب.. أنت ساحر ولا نحتاجك، فغادِر وعلى عجل...!

في تلك الليلة لمُ تعرف العائلة طعماً للنوم.. الوقت يمرّ ببطء شديد.. الليلة رأوها كشهر كامل.. ينتظرون

قدوم الشيخ يُرافقه أبي عبدالله المعالج.. صلّوا العصر جماعة في البيت، وما هي إلاّ دقائق قليلة وإذا بالشيخ وأبي عبدالله يطرقون الباب.. أبو عبدالله الرجل الجهم، مليح الوجه، طويل القامة، بوجهه نور يُشعّ، يجيل نظراته للجميع وكأنّه يتفحّصهم.. جلسوا.. سأل أبو عبدالله عن حيثيات ما يجري.. أخبروه بكلّ ما جرى.. سأل عن صلات القربى بين الموجودين.. طلب إبقاء الأعمام وبعض المصابين فقط وإخراج الباقين وخاصة أبناء فتنة.. بعدها نظر في عيون المصابين.. طلب من الشيخ أنْ يبدا بتلاوة الرّقية الشرعيّة.

حضر الجنيّ على بعضهم.. أمره بالتوقف وبدأ يستجوب الجنّ عن منْ هو صاحب هذا السحر ومنذ متى بدأ، ومن هم خُدّام هذا السّحرْ.. بدأت الأمور تتضح.. حيثُ أصرّ الجنّيون على أنّ سيّدتهم هي السّاحرة فتنة وأنّ سحرها بدأ منذُ سنين عدّة.. فقد

بدأته بعمل سحر لأبنائها ليكونوا خُدّاماً لها وعيون على العائلة.. دليلهم في ذلك أنّ أحد أبنائها قامت بعمل سحرٍ له ليخدمها فأخطأتْ وأدّى ذاك الخطأ إلى قتله من الجنّ وموته.

أمر أبو عبدالله الجنّ بالسكون والعودة والرّكون داخل الجسد وقال:

- أعتقد بأنّ الأمور بدأت تتضح الآن.. لا تخشَوا شيئاً.. سينتهي كلُّ شيءٍ حالاً، ولكنني سأوضّح لكم بعض الأمور.. الآن سنبحث عن كلّ شيء تمّ سحره في المنزل وبعدها سأقوم بقتل أيّ من الجنّ يتلبس في الأولاد حتى أنهيهم...

تيسير: وكيف ستقتل الجنيّ وهو مخلوق من نار..؟!

أبو عبدالله: أستشهدُ بكلّ ما أعمله بما قاله العلاّمة ابن تيمية، فلا أقوم بعملٍ غير شرعيّ ولا أستحضر

الجنيّ إلاّ بضغط قرآنيّ.. (فَمَنْ عَلِمَ صَدَّقَ وَمَنْ جَهِلَ أنْكَر)...

تيسير: لمْ أفهم...

أبو عبدالله: معلومة مؤكّدة أنّ أقصر مدّة لبقاء الإنسان على قيد الحياة بلا تنفّس، هي ثلاث دقائق.. وأنّ الجنيّ مخلوق من نار.. وأنّ النار لا تشتعل بدون الأكسجين، فإذا قمنا بقطع الأكسجين عن النار فستنطفيء وتموت...

تيسير: أيضاً ما زلت لا أفهم شيئاً...

أبو عبدالله: إنّ الجنّ ينتشر في حال التلبس في مجرى الدم بجسم الإنسان، فيكون في جميع أنحاء الجسد، ويستطيع التنقُّل كيف يشاء في أيّ عضوٍ من أعضائه .. أقوم بأمره أن يقوم بتجميع نفسه في منطقة الرأس.. ثمّ أقوم بلفّ هذا الشماغ حول عنق المتلبَّس وأقطع الهواء

عن الشخص، فلا يصل الأكسجين إلى الجنيّ، ثمّ ينطفيء ويموت.. وها هي فتاوى ابن تيمية في مسائل التلبُّس وقتل الجنّ مطبوعة في هذه الورقة...

تيسير: وهل تنتهي المسألة بهذا..؟

أبو عبدالله: اليوم سينتهي كلّ شيء، ولكن.. على الجميع أنْ يقوموا بتحصين أنفسهم بأذكار الصباح والمساء وقراءة القرآن، كما عليهم أن يبدأوا بأكل التمر الذي يُساعد على عودة الهالة لهم لتحميهم من التلبُّس.. كما أنّ على الجميع أنْ يقوموا بشرب الماء المقروء.. هو علاج قرآنيّ بحت.. أمّا أنْ ينتهي السحر والحسد، فلا أظنّه سينتهي إلاّ بموت الساحرة.. بالنسبة للحسد، فهو أخطر من التلبس.. وكما ذكر رسول الله صلّ الله عليه وسلم بأنّ أغلب أهل القبور بسبب الحسد.. هناك رُقية للحسد، ولكن علينا أنْ نعرف من هو الحاسد لفكّها.. أو أنْ تكون رقية عامة.

تيسير: نحن على أحرّ من الجمر لنرى أبناءنا يعودون بخير ولك كلّ ما تطلب...

أبو عبدالله: عندما أبدأ بالقتل، عليكم أن لا تتصرفوا بأيّ تصرف يُفسد العمل.. انتظروا وسترون النتائج.. على كلّ من يخاف وقلبه ضعيف أنْ يخرج من هنا...

تيسير: على بركة الله واصنع ما شئت...

طلب أبو عبد الله أنُ يقرأ الشيخ الرّقية على إحدى البنات التي اختارها معلّلاً بأنها الأقوى بين المصابين.. حضر الجنيّ.. بدأ أبو عبدالله التحقيق معه طالباً منه إرشاده لكلّ شيء مسحور داخل المنزل من خلال المصابة.. أرشدهم على الكثير من الملابس المسحورة والتي تخصُّ الأولاد وقطعة صغيرة من العلكة كانت قد وُضعت على ظهر خزانة وفي زاوية منها.. وعلى خرزة زرقاء صغيرة وُضعت في تراب نبتة داخل المنزل ومصحف

كانت تقرأ به والدتها.. جمع كلّ الأشياء المسحورة.. طلب ماءً.. رقاه بآياتٍ قرآنيّة.. وضع فيه ملحاً.. بدأ يضع المسحورات بالماء المرقيّ.. وعندما يضع أيّ شيء، تبدأ البنت بالصراخ والألم بادٍ عليها.. أبو عبدالله يطلب من الجميع عدم الخوف لأنّ الأمور ستنتهي قريباً.

بعد أنْ قام بإبطال كلّ سحرٍ حتى من المصحف، قام بوضع الشماغ حول عنق البنت، وبدأ يُحاور الجني بعد أنْ أمره بتجميع نفسه في رأسها.. وبينما الجنيّ يتكلّم، قام بشدّ الشماغ من طرفيه بادئاً بعمليّة الخنق.. بدأتْ البنت ترفس وكأنها تُكابد الموت اختناقاً.. استمرّ هذا الأمر لدقيقة أو أكثر.. بدأ الخوف والجزع يخامر الجميع بأنّ البنت ستموت.. أبو عبد الله يبتسم لتهدأتهم ويطلب منهم الصبر للحظات.. فجأة أرخى الشماغ.. البنت تستلقي وكأنّها ميتة.. قام بسكب القليل من الماء المرقيّ على وجهها.. نهضت تصيح وتركض

كالمجنونة.. أمسك بها أخوها حتى هدأت بعد لحظات.. سألها أبو عبدالله عمّا رأت، فقالت: رأيتُ ظلاماً دامساً وخيال مرعب ودماء، وأنّني أموت اختناقاً، أمّا الآن فأنا أشعر بأنني بخير.

قتل لجميع المتلبّسين.. قام بتقديم كبسولات لهم تقوم على إسهالهم وذلك لإخراج مطعوم الجنيّ والساحرة من بطونهم حتى يكتمل الشفاء.

بعض شباب العائلة، الذين أخبروهم بما جرى، وخاصة المتعلمين منهم، قرؤوا الورقة التي قدّمها أبو عبدالله.. بدؤوا يبحثون من خلال الإنترنت عن حقيقة ما ذكره في ورقته ورأي الإمام ابن تيمية في هذا المجال، ليتأكدوا من حقيقة جميع ما ذُكر.

استمرّ هذا الصراع لشهور ستة أو أكثر قليلاً.. حرباً بلا هوادة أعلنتها السّاحرة للتغلُّب على أبي عبدالله..

لكنّه كان أقوى منها وأصبر.. وقف بقوّة يستنصر بالله للمظلومين على الظالمة.. تعافى الجميع إلاّ من بعض الحسد.. عادت لهم هالاتهم.. يُحصّنون أنفسهم بالأذكار وقراءة القرآن.. يتناولون التمر في كلّ صباح ويشربون الماء المقروء.

حقائق وقصص كثيرة ومثيرة بدأتْ تتكشّف لتيسير.. الكثير منها أكثر إيلاماً وأشدّ مما رأى.. البعض منها وصل حدّ الموت.. أكثر الناس يصمتون ويُخفون ما هم فيه.. البعض لا يملك المال للمعالجة.. منْ يملك المال يُخفي ما يجري له خوفاً على سمعته وكأنّ هذا الأمر عيباً يعيبه فيخاف على سمعته وأعماله وعلاقاته. أمّا فتنة، فما زالت على قيد الحياة.. تبثّ سمومها بين الناس.. الكثيرون ينتظرون موتها.. ولكن..... هناك ألف فتنة وفاتن...!

❖❖❖

الزّانيـــة

عمر، شابٌ وسيم.. بهيّ الطلعة.. له ابتسامة مليحة تصنعها غمّازتيه فلا تفارق وجهه.. طويل القامة.. أنيق في ملبسه.. واسع العينين أحورهما.. تخرّج قبل عام من الجامعة بتخصّص الحاسوب.. تمّ تعيينه في إحدى الوزارات الخدماتيّة.. أحبّه جميع المسؤولين والموظفين لحسن معشره وكفاءته.. يقدّم المساعدة لأيّ مراجع دون سابق معرفة به.. هو مثال للموظف النقيّ والنشيط.. اعتاد أنْ يكون على رأس عمله قبل بداية الدوام بنصف ساعة تقريباً.. يحترم والديه وإخوته.. يحبّهم ويقف معهم جميعاً.. لا يتأخر عن تلبية أيّة طلبات يطلبونها.

بدأ والداه يستحثّانه على الزواج.. كان يبتسم لهما ويقول بأنّه من المبكِرِ التحدّث في هذا الموضوع.. تستعرض أمّه أسماء بنات وذكر عائلاتهن أمامه.. يضحك ويقول لأمه مداعباً: (شو رايك تتجوزيهن يا

حجة..؟).. تضحك أمّه وتقول: (واللّه لو أنا زلمة، كان أخذت فلانة.. أو فلانة.. أو فلانة..!).. تستحثّه بأسلوبها المُداعب.. يضحك.. يقوم يقبلّ رأس أمّه.

تحت وطأة ضغط والديه عليه، وافق عمر على أنْ يخطب فتاة بشروط حدّدها لهم.. أنْ تكون على درجة من الجمال.. أنْ لا يتجاوز عمرها الثامنة عشرة.. أن لا يتجاوز تعليمها درجة الثانويّة العامة.. أنْ لا تكون من أسرة ثريّة.. نظرت إليه أمّه وابتسامة لطيفة ترتسم على شفتيها وكأنها وجدت ضالّتها.. قالت له بصوت هاديء: طلبك موجود.. فتاة لا مثيل لها في الدنيا.. دين وأخلاق.. كمال وجمال.. أدب وحشمة.. أصل وفصل.. وحيدة لأمها وأبيها.. تقول للقمر:

قُمْ وأنا سأجلس مكانك.. أهلها مستعدون لتزويجها...

عمر: ومن هي هذه الملاك يا أمّي..؟

الأم: إنها ميرا...

عمر: لا أعرفها.. من هي ميرا..؟ ابنة منْ..؟

الأم: انها ابنة رجل يعمل في معمل الألبان الواقع بالقرب من المركز الصحيّ...

عمر: عرفتُ الموقع.. ولكنني لا أعرف هذا الرجل...

الأم: لا عليك، نحن نعرفه.. هل تأذن لي بأن أزورهم وأقوم بجسّ نبضهم لطلب يدها..؟

عمر: لا مانع لديّ يا أمّي إنْ كانت هذه هي مواصفاتها...

الأمْ: على بركة اللّه.. سأقوم بزيارتهم غداً إنْ سمح لي والدك...

الأب: طبعاً لا مانع لديّ.. أعرف أبا ميرا جيداً.. رجل أعتبره عنواناً للأدب وحسن الخلق.. (الزلمة مستور وعايش بحاله.. هذول ناس بنعيش معهم العمر كلّه.. اللّه يجيب إللي فيه الخير..).

في اليوم التالي وبعد الساعة العاشرة صباحاً، أوصل أبو عمر زوجته بسيارته القديمة، والتي تساوى عُمْر صناعتها بعمر ولده إلى بيت أبي ميرا.. استقبلتها أمّ ميرا بحفاوة بالغة.. شكرتها على هذه الزيارة المفاجئة.

أمّ عمر تعمدّتْ هذا الوقت للزيارة.. قصدت أنْ تفاجئهم لتحاول كشف حقيقتهم بلا ترتيب وعلى طبيعتهم.. أجلست ميرا إلى جانبها.. تُحدّثُها.. تمسح بيدها على شعرها محاولة شدّ شعرها بلطف لتتأكد من أنّ طول شعرها وانسيابه، ما هو إلاّ على طبيعته.. بدأتْ تسألها عن الطبخ وأمور البيت.. اكتشفت هدوءها وسكينتها خلال حديثها.. لمْ تُطِقْ صبراً

فطلبت من ميرا أن تعمل لها فنجان قهوة لإبعادها.. أسرّت لوالدتها برغبتهم خطبتها بعد أن سردت عليها القليل من المعلومات عن ولدها.. ابتسمت أمّ ميرا وقالت: (واللّه إنتوا ناس بتشرّفوا، وبنتنا مش للخزين..، وإلّلي ما بتدرس، ما إلها غير الجيزة.. وابنكم مش ناقصه إشي.. اليوم أرُدّ الخبر على أبوها.. واللّه يجيب إللي فيه الخير...).

قام عمر بخطبتها لمدّة شهور ثمانية.. عاشا خلالها أسعد أيامهما.. بنيا علاقة حبّ متينة.. أصبحا لايطيقان بُعداً.. قرّرا الزواج بعد أنْ أكمل عمر البناء فوق منزل والده ليعيشا حياة لا يحلم بها الكثير من المتزوجين.

سنتان مرّتا على زواجهما، لمْ يُنجبا خلالهما.. بضغط من الأهل قرّرا زيارة الطبيب.. أجريا فحوصاً ليثبُت من خلالها بأنّ ميرا لا تُعاني من أيّة مشاكل وعلى عمر أنْ

يبدأ مرحلة العلاج. شهور ستّة مضت دون أنْ تظهر هناك أيّة بوادر للحمل رغم العلاج الذي يتناوله عمر.

قرّر عمر أن يسافر إلى أوروبا بحجة العمل والإستجمام.. غاب أسبوعان.. عاد بنفسيّة أسوأ مما كان.

أمّ عمر، جلست مع كنّتها الساذجة.. أقنعتها بأنّ نتائج المختبر غير صحيحة، وأنّ السبب غالباً ما يكون عند المرأة وأنّ عليها أن تأخذ بعض الأعشاب التي نصحها بها العطار.. لمْ تؤتِ الأعشاب ثمارها؛ فقررتا أنْ تزورا الشيخ أبو ياسين الذي يُعالج للحمل.. لقد حملت أكثر النساء اللواتي زرنه (كما قالت أمّ طه جارتهم).. فتكرّرت زيارتهما لهذا الشيخ (المبروك)...!

ذات يوم، عاد عمر من عمله ليجد فرحاً وغناء في بيت أهله.. اندهش مما رأى.. استفسر مستغرباً عن

سبب هذه الأفراح.. اندفعت إليه والدته تحتضنه.. تقبّله بحرارة وحنان وقالت:

مبارك يا ولدي حمل زوجك.. ستُصبح أباً عمّا قريب.. دفعها عنه بعيداً بلا وعي ولا إرادة.. صدمة الخبر جعلته يبدو كسكّير لا يملك عقله.. وهل ينزعج من يُبشَّرُ بحمل زوجه..؟!

تبدّلت حياة عمر إلى جحيم.. دائم السرحان والتفكير.. يسهر أغلب الليل.. بدأ جسمه بالنّحول.. أصبح كثير المرض.. قليل الأكل والكلام.. يُعامل زوجته بجفاء.. انقلبت موازين حياته فواكبها.

اقترب موعد ولادة زوجه.. كان كلّما اقترب موعد الولادة، يزداد عمر توتّراً.. في ظهيرة أحد أيام آب الحارة، غادر عمله عائداً إلى بيته.. وجد ببيتهم فرحاً وطبلاً وزمراً.. الأهل والجيران يرقصون مسرورين..

عرف بأنّ زوجته أنجبت ولداً ذكراً.. استاء جداً من الخبر وصرخ بالجميع أنْ يصمتوا ويفضّوا هذه السخافة كما أسماها.

مرّتْ خمسة أيّام من أصعب أيّام عمر.. يجلس على كرسيّ ينظر إلى ميرا وهي تُرضعُ الطفل الذي لمْ يقُمْ بتسميته بعد.. نهض عن كرسيّه شارد العقل.. تحدّثه ميرا ولا يسمعها.. بدأ يسير مُتثاقلاً بخطوات متقاربة وبطيئة.. اتّجه إلى المطبخ.. أحضر سكيناً.. بدأ يطعن بميرا والطفل وصراخه كأنّه وحش يهجم على فريسته.. ينقضّ عليهما كأسد جائع يستعجل التهام طعامه الذي يشتهيه.. تضرّجا بدمائهما وخرّا صريعين حالاً.. سكنا، فهدأ عمر قليلاً.. ينظر إليهما مقهقهاً.. ألقى بسكينه عليهما بقرفٍ واشمئزاز.. خرج بهدوء.. ذهب إلى مركز الشرطة القريب وسلّم نفسه معلناً لهم بأنّه قام بقتل زوجه ووليدها.

أجلسه الضابط على كرسيّ مريح.. طلب له فنجاناً من القهوة والماء.. أعطاه سيجارة وطلب منه الهدوء.. بعد مرور ربع ساعة، سأله:

الضابط: هل ارتحت الآن..؟

عمر: نعم.. قليلاً...

الضابط: هل بإمكاننا أنْ نبدأ التحقيق..؟

عمر: لا بأس...

الضابط: هل تعترف بأنّك قمت بقتل زوجك وولدها..؟

عمر: نعم.. ولستُ نادماً...!

الضابط (باستغراب): لستَ نادماً..!

عمر: نعم.. لستُ نادماً أبداً...

الضابط: وَلِمَ..؟!

عمر: لأنّها زانية.. وهذا الولد ليس ابني...

الضابط: ماذا تقول..؟ هذا كلام خطير...

عمر: نعم.. هي الحقيقة...

الضابط: بالنسبة لنسب الولد، سنقوم بعمل فحص الـ (DNA) وتأكيد نسب الطفل.. أمّا بالنسبة لزوجك، فمَن تعتقد بأنّه الجاني..؟

عمر: لستُ أدري.. فقط أنا متأكد بأنّها زانية وهذا الطفل ليس منْ صُلبي..

الضابط: وهل اعتادت زوجتك الخروج من المنزل..؟ هل تشك باتّصالها مع أيّ شخص..؟ هل هي سيّئة السلوك حسب علمك..؟

عمر: لا.. لا أظنّ ذلك.. زوجتي لمْ تكن تخرج من البيت إلاّ بصحبة والدتي وكان خروجهما قليلاً.. أمّا بالنسبة لحسن خلقها وسلوكها، فلا شكّ لديّ بهما...

الضابط: إذن لمَ قمتَ بقتلها..؟

عمر: قلتُ لك.. لأنها زانية وهذا الولد ليس من صلبي..؟ **(ياما تحت السّواهي دواهي..!)**.

الضابط: تتحدّث وكأنّك واثق ممّا تقول...

عمر: تمام الثقة...

الضابط: وكيف ذلك..؟

عمر: يا سيدي الضابط.. كنّا أسعد زوجين.. نهنأ بحياة يحسدنا عليها الكثيرين.. رغد العيش والحبّ أعطيانا كلّ ما نتمنى إلاّ من الذريّة.. برغبة من زوجتي والأهل، وبعد أن تأخرّ إنجابنا، ذهبنا إلى الطبيب.. قام بعمل

الفحوصات الطبيّة المطلوبة.. أشارت النتائج إلى أنّ السبب يكمن بي وأنّ زوجتي لا تُعاني شيئاً.. بدأتُ مرحلة العلاج التي لمْ تُظهر أيّ بريق أمل.. ذهبت دون علم منْ أحد لطبيب آخر.. أكّد لي استحالة استطاعتي الإنجاب.. زرتُ ثانياً وثالثاً فأكّدا لي نفس النتيجة.. قلتُ في نفسي أنّه يجب أنْ أقطع الشّك باليقين.. افتعلتُ سبباً للعمل والاستجمام.. قمتُ بزيارة إلى أوروبا.. أجريتُ عدّة فحوصات.. أكّدتْ جميعها خلوّي من بصيص أمل لأن أكون أباً في يوم من الأيّام.. عدتُ أجرُّ ذيول الخيبة والأمل إلاّ من رحمة اللّه.. تحطمّتُ نفسيّاً.. بدأتُ أرى الحياة سوداء بلا ألوان أخرى.. صرتُ أتساءل عن ذنب زوجتي وحرمانها من الأولاد.. بدأتُ أفكّر بمصارحتها وطلاقها.. حبّي لها هو ما أوقعني بهذا التردد.

سكت عمر.. بدأت دموعه تنساب على وجنتيه.. هدّأ الضابط من روعه.. طلب له فنجاناً آخر من القهوة وقدّم له سيجارة أخرى.. سأله:

الضابط: هل نتوقّف الآن ريثما تستريح ثمّ نكمل لاحقاً..؟

عمر: لا يا سيّدي.. أريد أنْ أفرغَ ما في جعبتي لأُريح نفسي.. أريد أن أطرح جميع الأحمال التي ترهقني كي أستريح.. أنا الآن حرٌّ من كلّ شيءٍ حتّى الحياه.. إنّي أزهد بها ولا أريدها...

الضابط: هل نُكمل إذن..؟

عمر: نعم يا سيدي.. في ذاك اليوم الذي قررتُ فيه مصارحتها بحقيقة مشاعري وقراري، عدتُ إلى البيت والألم يعتصرني.. بتُّ أشفق عليها ولا أشفق على نفسي.. هذا قدري من الله وعليّ أنْ أقبلَ به.. حبّي لها ورغبتي

بإسعادها جعلاني أقرُّ بحقيقة واقعي وعجزي عن الإنجاب.. وجدتُ ما لم يكن بالحسبان...

الضابط: وما هو..؟

عمر: وجدتُ أهلي يحتفلون لثبوت حمل زوجتي.. صغُرت الدنيا في عينيّ.. بتُّ لا أرى إلاّ سوادها وظلمتها.. بدأتُ أتخبّط وأتحمّل على كفّ القدر.. لا أدري ما أفعل.. أتساءل بيني وبين نفسي.. كيف تحمل زوجتي وأنا كما أكّد لي العديد من الأطباء بأنّه من الإستحالة أنْ أنجب..؟! تضاربٌ في أفكاري التي لمْ تأخذني لأبعد من زنا زوجتي.. أيّام تمرّ وأنا لا أفكّر إلاّ بزوجتي.. أراها تُضاجع رجلاً غيري.. الكلُّ سعيد من حولي.. تعاستي تتفوّق كثيراً على سعادتهم.. بدأ بطن زوجتي يكبُرُ وهمومي تُسابقه.. لا أرى أمامي أكثر من زانية فاجرة.. ندمتُ أنّني أحببتها يوماً.. بدأتْ همومي تتعاظم، إلى أنْ جاء ذاك اليوم المشئوم.. عدتُ من عملي لأجد احتفالاً

وغناء وزغاريد في بيتي. احتفال أعظم وأكبر من الإحتفال السابق.. صاعقة مدمّرة وقعت على رأسي حين علمتُ بإنجابها.. بتُّ أنظر إلى الزانية فرحة بوليدها الذي لا يمتُّ لي بصلة لا من قريب ولا من بعيد.. كيف لي أنُ أعيش وأرى ذاك الطفل يحمل اسمي ويربى من مالي وفي بيتي..؟ لمْ أقم بتسميته لأنّه لا حقّ لي بتسمية أبناء الناس.. فكيف لي أنْ أسمّي ابن الحرام هذا..؟

كنتُ أستطيع أنُ أستخدم عقلي قليلاً.. أمّا الآن فقد فقدته تماماً.. أيّام عصيبة جداً مرّت مثقلة بالهموم.. بلا وعي ولا إدراك أقدمتُ على قتل الزانية وابن الحرام الذي كانت ترضعه.. أنا الآن بخير.. لقد حرّرتُ شرفي وعرضي.. الأهمّ أنّني حررتُ نفسي.. يا سيّدي الضابط.. اصنع ما ترى.. أنا طوع أمرك ورهن إشارتك.. أنا القاتل وأفتخر...!

الضابط: لا بأس عليك.. هناك أمور كثيرة مبهمة في هذه القضيّة.. أعتقد بأنّ والدتك لديها الأجوبة عنها.. سأستدعيها للتحقيق غداً ونرى بعد ذلك.

في صبيحة اليوم التالي، حضرت والدة عمر إلى ضابط التحقيق.. أجلسها في ركن المكتب.. بدأ بسؤالها:

الضابط: كما تعلمين بأنّ ولدك أقدم على قتل زوجه وابنها.. امرأته التي قال عنها بأنّها زانية.. ما تقولين في ذلك..؟

أجهشت الأمّ بالبكاء وقالت:

الأمّ: لا يا ولدي.. ميرا ليست زانية.. هي من أشرف النساء التي عرفتها.. لمُ تخرج من بيتها يوماً إلاّ بمرافقتي.. حتى عندما كانت تزور بيت أهلها، تُمضي ساعة أو ساعتان وهي معي لا تفارقني...

الضابط: هل تعرفين بأنّ ولدك لا يستطيع الإنجاب..؟

الأمّ: هذا ما قاله الطبيب.. أعطاه علاجات وكان يتناولها أمامي.. ولكن الطبيب أخطأ.. كنّتي هي من كانت تعاني من أسباب تمنع حملها.. لمْ نعتد أن نرى الرجل لا يُنجب.. كيف يكون ذلك وهو رجل شاب وقوي..؟ أحضرتُ لها أعشاباً وصفتها لي بعض النساء والعطّار ولم تُجدِ نفعاً.. أخيراً أرشدتني إحداهنّ إلى الشيخ (المبروك).. وبعد عدّة مراجعات استطاعت ميرا أنْ تحمل...

الضابط: وما هو اسم الشيخ وعنوانه..؟

الأمّ: الشيخ أبو ياسين.. يقطن في المدينة المجاورة...

الضابط: وما هو العلاج الذي كان يقدّمه هذا الشيخ..؟

الأمّ: لم يكن يعطيها أيّ علاج.. كان يُدخلها إلى غرفة المعالجة وحدها.. تغيب نصف ساعة وتعود منهكة..

كان يطلب أموالاً كثيرة.. ما همّني المال إكراماً لأنْ أرى حفيدي...

هزّ الضابط رأسه وسألها إنْ كانت تودّ أنْ تُضيف شيئاً.. أجابت بالنفي والبكاء.. أمرها أنْ تعود إلى بيتها وأنَّه ربّما يستدعيها لاحقاً من أجل التحقيق.

قام الضابط بطلب عمل فحص ال DNA الذي أكدّ أنّ الطفل لا ينتمي إلى عمر.. قرّر أنْ يبحث في موضوع الشيخ.. قام باستدعاء إحدى المومسات المتعاونات مع رجال الأمن.. شرح لها القضيّة وطلب منها أنْ تذهب إلى الشيخ بحجّة المعالجة من أجل الإنجاب وكشف الحقيقة وسيقوم بتوفير جميع مطالبه فوراً.

ذهبت المومس إلى الشيخ.. أعطاها موعداً لأسبوع طالباً منها أنْ تُحضر معها خاروفاً أسود في جبهته نقطة

بيضاء؛ ليقدّمه لسيّده الجنيّ، ومبلغاً أوّلياً من المال يقدّر بمئة دينار، وسيتبعها التكاليف الأخرى.

وفّر الضابط كلّ ذلك.. طلب منها أن تفتح عيونها وعقلها وأنّ عليها أن تعود بإجابات شافية لكلّ تساؤلاته كي يستطيع أنْ يحلّ هذا اللغز المحيّر.

عند الشيخ، أدخلها إلى غرفة لم يكُن فيها غيره وغيرها.. أجالت بصرها في أنحاء الغرفة لمْ ترَ سوى سرير واحد وجدران عارية إلاّ من سبحة كبيرة معلّقة في إحدى الزوايا.. باقي الغرفة بجدران بيضاء من غير زركشات أو غيره.. قال لها الشيخ بأنّ سيّده الجنيّ أخذ الخروف وهو الآن يتناول طعامه وسيحضر بعد لحظات لعلاجها.. طلب منها أنْ تستلقي على السرير وأنْ تعصب عينيها بمنديل قدّمه لها.. معلّلاً ذلك بعدم قدرتها على النظر إلى سيّده الجنيّ.. استجابت لمطالبه.. بدأ يقول لها:

الشيخ: ها هو سيّدي الجنيّ يدخل الغرفة الآن.. إنّه يقترب منك.. سيضع يديه عليك الآن.. سيقوم بخلع ملابسك من الأسفل.. أرجو أن لا تقاوميه فهو عصبيّ المزاج ولا يحتمل المقاومة وإلاّ..... ها هو يعتليك.. سيقوم بمضاجعتك فتجاوبي معه...

في تلك اللحظة، مدّت يدها.. أزاحت العصبة قليلاً لترى رجلاً ضخماً يعتليها.. لمْ يكن جنيّاً بل إنسيّاً.. غضب الشيخ وصرخ بها أنْ تُبقي العصبة على عينيها حتى تنتهي مهمّة سيدّه الجنيّ ويغادر.

قامت الشرطة بعمل مداهمة إلى وكر الشيخ.. اعتقلوه وأربعة من الرجال الشداد أقوياء البنية.. وجدوا لديه الكثير من المال وبعض المقتنيات الغريبة والثمينة وعلى ما يبدو أنّ هذه المقتنيات هي منْ مطالبه لسيّده الجنيّ كما يدّعي.. عند التحقيق معه أحضر الضابط

الأمّ للتعرّف عليه والشهادة عن كلّ ما قدّمته له.. بدأ الضابط تحقيقه معه بسؤاله:

الضابط: ما تقول في أنّك كاذب ومخادع..؟

الشيخ: نعم صحيح.. فأنا لا أعالج ولا علم لي بذلك...

الضابط: إذن.. لماذا تمتهن هذه المهنة بالنصب والإحتيال..؟

الشيخ: لأنّني وجدت هذا العمل يدرُّ عليّ دخلاً هائلاً.. وسذاجة الناس شجّعتني على امتهانه...

الضابط: قل لي: كيف بدأت وكيف طوّرت نفسك لتكون بهذا الحجم وهذه القوّة..؟

الشيخ: ذات مرّة، جاءتني إحداهنّ تقول لي بأنّ جارتها قالت لها أنْ تأتيني لأعالجها من أجل الحمل بالقرآن.. أعلمتها بأن لا علم لي بذلك.. أصرّت فقرأتُ عليها بعض

الآيات القرآنية.. تلك المرأة لم تكن تعاني من شيء.. فقط تأخرّ موعد حملها وهذا أمرٌ عادي.. شاء القدر أن أقرأ عليها القرآن في فترة إخصابها وحملها.. اعتقدتْ بأنني السبب.. أخذت تمدحني.. أصبحت النساء تتهافت عليّ عارضات الأموال والهدايا.. راق الأمر لي فجاءتني فكرة **شيطانيّة** لتوظيف هؤلاء الرجال الأربعة والذين قمت بانتقائهم بعناية فائقة وأجريت لهم فحوصات طبيّة للتأكد من فحولتهم وقدرتهم على الإنجاب.. أربيهم وأهتمُّ بصحّتهم كما تُربي فحول الغنم والدواب.. لا أبخل عليهم كي يعطوني النتائج التي أرنو إليها.. عندما تحمل المرأة، وخاصة الثريّة، تنهال عليّ الأموال والهدايا بلا حدود..

الضابط: وما الذي حصل مع ميرا..؟

الشيخ: كما فهمت من حماتها، بأنّها لا تُعاني من شيء.. لمْ تكُنْ أرضاً قاحلة.. كانت خصبة متعطّشة..

لا ينقصها إلاّ البذرة.. وأنّها أجرت فحوصاً طبيّة أثبتت عدم وجود أيّة مشاكل لديها وأنّ الأطباء أخبروها بأنّ المشكلة تكمن عند زوجها وأنّ الأمّ غير مقتنعة بهذا الأمر.. أعلنت لها تأييدي بصحّة تفكيرها وأقنعتها بأنّها ستلمس النتائج الإيجابيّة خلال شهر واحد.. أمّا ميرا، فقد كانت سليمة معافاة.. رغبتها بالحمل جامحة.. زاوَجتُها عدّة مرات مع فحولي الأربعة بواقع مرّة كلّ ثلاثة أيّام.. كان الحمل سهلاً وسريعاً.

اكتملت خيوط القضيّة للضابط.. تأكّد له زنا ميرا بسبب جهلها وليس فساد أخلاقها وبراءة عمر من سوء الظنّ وارتكابه لجريمتي قتل عن سبق إصرار.. وللمحكمة أنْ تقول الكلمة الأخيرة...!

❖❖❖

الزّائـر والجنّـي

في بدايات سبعينيّات القرن التاسع عشر، كنتُ في نهاية مرحلة دراستي الإعداديّة.. أسبوع واحد وننطلق للّعب واللهو.. ننتظر بفارغ الصبر ذاك اليوم.. عام دراسيّ صعبٌ مرّ علينا.. انتهى وقررنا إغلاق عقولنا مع كتبنا عن الدّراسة والتفرّغ التام للّعب ولقاء الأصدقاء الذين كانوا لا يخرجون طيلة فترة الامتحانات.. بسبب الحرّ الشديد في تلك الأيّام، كنّا نخرج بعد صلاة العصر، لتبدأ مسيرة لهونا.

في مساء يوم خميس وقبل أذان العصر، حضر إلى بيتنا صديقي عبدالله.. ناداني للخروج.. استأذنتُ والدتي فسمحت لي على أنْ نذهب عند رفع الأذان إلى المسجد لأداء الصلاة.. أكّدتُ لها ذلك وخرجنا.

فاجأني عبد الله بوجود شاب من جيلنا يرافقه.. لا يكاد يختلف عنّا بصفاته سوى أنّه أشقر وله إصبعان في يده اليمنى كلٌّ منهما بعظمة واحدة وليس ثلاث عظمات مثل باقي الناس.. اصبعه البنصُر والسبابة يلتصقان إلاّ من انفراجة صغيرة بينهما لا يتعدّى طولها السنتمتر الواحد.. يستخدم هذين الاصبعين كما ذكر ليقوم بالقرص بهما.. إذا أحكم مسك لحم أيّ شخص، فسيجعله يصيح ألماً.

خالد، من سكان إحدى قرى محافظة جنين في فلسطين التي أكمل اليهود اغتصابها في العام ١٩٦٧م.. نشروا قوّاتهم في جميع مناطق فلسطين وجعلوا زمام الأمور بأيديهم.. قاموا بتجنيد بعض رجالات الشرطة السابقين وآخرين جدد لحفظ الأمن، وضبط حركة السّير في المدن.. أمّا رجال الإطفاء فكانوا منهم فقط.

ذهبنا وخالد إلى أطراف البلدة في المنطقة التي اعتدنا أن نلتقي فيها مع أصحابنا.. اكتشفتُ بأنّ خالد من الطلاب الأذكياء، وأنّ لديه قدرات ومهارات يتفوّق فيها علينا.. عندما بدأنا نلعب، اقترح علينا خالد أنْ نقوم بلعبة رمي الحجارة، حيث يقوم أحدنا برمي حجر صغير لأبعد مسافة ممكنة.. نحدّد مكان سقوط الحجر.. يرمي البقيّة فيتمّ تحديد صاحب أبعد رمية بأنّه هو الفائز.. اعترض عبدالله في البداية معلّلاً بأنّ خالد هو من سيفوز.. بناء على موافقتي رضخ عبدالله.. كانت المفاجأة بأنّ خالد يرمي أبعد منّا بمقدار الضّعف أو أكثر.. تعبنا من هذه اللعبة المرهقة والتي خسرنا أمام خالد في جميع جولاتها.. جلسنا نستريح.. استلقيتُ مستمتعاً رغم تعبي.. وكزني عبدالله وقال:

إجلس واعتدل.. سأحدّثك بحديث شيّق عن خالد.

سررتُ بما أسمع.. أصبحتُ في شوق لمعرفة المزيد عن خالد وعن قدراته التي يتفوّق بها علينا.. اعتدلت وأنا أعلن جاهزيّتي للإستماع والإستمتاع.

قال عبدالله: أتذكُر المشكلة التي كتبت عنها الجرائد منذ أكثر من شهرين وتحدّث عنها الناس مطوّلاً حول مشكلة وعذابات إحدى العائلات في إحدى قرى جنين..؟

أنا: نعم أذكرها.. أعانهم الله.. لمْ يستطع أحد حلّها..

عبدالله: نعم.. نعم.. لمْ تستطع حتى قوّات الإحتلال حلّها...

أنا: حسناً.. وما دخل خالد فيها..؟

عبدالله: يا حبيبي..! هو صاحب المشكلة...

نظرتُ إلى خالد الذي طأطأ رأسه وكأنّه يفكّر أو يستجمع أفكاره للبدء بالحديث.. سألته عن حقيقة ما يقوله عبدالله.. هزّ رأسه مؤيّداً لأقوال ابن عمّه، وقال بحسرة وألم:

خالد: هي الحقيقة يا صديقي.. نحن أصحاب المشكلة...

أنا: وهل انتهت مشكلتكم..؟ هل تمّ حلُّها..؟

خالد: نعم...

أنا: أخبرني بالتفاصيل إذن...

خالد: حاضر يا صديقي.. ولكنّ قصّتنا مخيفة.. فهل تحتمل سماعها..؟

أنا: لا تَخَف عليّ فقلبي ميّت ولا أخشى شيئاً...!

خالد: أنت من جنيت على نفسك.. استمع إذن...!

أدار وجهه نحوي بعد أنْ عدّل من جلسته وقال:

قبل أكثر من عام، وبينما نحن جلوس في بيتنا الريفيّ وكانت نهايات العام الدراسيّ تقترب.. البعض منّا يدرس والبعض يلهو بالحديث أو الرسم.. أبي يدخّن وأمّي تجاوره.. يتحدّثان بأمور التحضير للموسم الزراعي القادم وعن محصول العام الوفير.. حدث أمرٌ غريب وعجيب.. سمعنا أصواتاً في غرفة المونة.. هرعنا إلى هناك.. وجدنا القمح منعوفاً على الأرض وقد اختلط مع الشعير.. فوقه السكر والملح والأرز.. يتم خلطها لوحدها بلا فاعل.. لم يكن هناك من يقوم بذلك.. أصِبْنا برعبٍ شديدٍ.. كيف يحدث هذا بلا مُسبّب..؟ وبينما نحن نقف عاجزين عن فعل أيّ شيء، وإذا بالنار تشتعل في فراشنا.. لا مسبّب أيضا.. هرعنا نقوم بإطفاء النار.. بدأ تكسير بالأثاث ونحن نقف واجمين لا حول لنا ولا قوّة.. قدم بعض الجيران على صوت صُراخ أمّي وأخواتي

البنات.. أصابهم الذّهول من هول ما رأوا.. اقترح بعض المتعقّلين أن نقوم باستدعاء الشرطة.. حضرتْ دوريّتان وسيّارتا إطفاء.. لمْ يستطيعوا أن يقدّموا شيئاً.. أمر الضابط بعودة سيارتا الإطفاء إلى جنين وأبقى على بعض أفراد الأمن للحماية واستجلاء الأمر.. وقف الجنود يحملون أسلحتهم بأيديهم.. لمْ تمضِ ساعة من الزمن وإذا بالجنود تُسحب أسلحتهم من أيديهم وتُلقى على الأرض.. ارتعب الجنود وبدأوا يركضون مبتعدين وتاركين سلاح البعض على الأرض.

بعد ساعة من الزمن، حضرت عدّة سيّارات من قوات جنود الإحتلال.. اصطفّوا بشكل طوق حول البيت.. ابتعدوا عشرات الأمتار.. يقفون على أهبة الإستعداد.. أيديهم على الزّناد.. اقترب البعض منهم.. أخذتْ أسلحة الباقين.. صرخ بهم قائدهم يستحثّهم على سرعة الإنسحاب.. غادروا المكان والبلدة بلا رجعة.

اقترح البعض أن يقوم والدي بإحضار بعض الشيوخ من أجل الرّقية وقراءة القرآن علّهم يستطيعون حلّ المشكلة.. تكرّر حضور الشيوخ.. تعدّد الشخوص.. عجز الجميع عن الحل.. أسلمنا أمرنا للّه.. لمْ يبق لدينا ما نأكله أو نلبسه.. كاد كلّ شيء أن ينتهي.. أصبح الجيران يتصدّقون علينا بالطعام والكساء.. ساء حالنا حتى أوشكنا على الهلاك.

كنت أهوى الجلوس تحت شجرة تين لا تبعد عن بيتنا أكثر من بضعة أمتار.. ذات يوم، وبينما أنا جالس هناك، رأيت رجلاً يجلس مقابلي.. لم أتبيّن ملامحه بشكل جيد.. سألني:

الرجل: هل تعرف من أنا..؟

أنا (بلا خوف): لا أعرفك.. لقد اعتدنا على كلّ غريب وعجيب.. هيّا قلْ منْ أنت...

الرجل: أنا جنيّ...

أنا: وهل أنت من يقوم بتعذيبنا هكذا..؟

الرجل: نعم.. ولن أتوقف الآن، ولكنني سأقوم بالتخفيف من تعذيبكم...

أنا: ولمَ تعذّبنا..؟

الرجل: أتذكرُ يوم الحادثة..؟

أنا: نعم.. وهل هو يوم يُنسى..؟!

الرجل: في ذاك اليوم، قمتَ بسكب ماء حار خارج المنزل...

أنا: نعم.. والدتي أمرتني بسكبه بعيداً...

الرجل: في تلك اللحظة، كان ولدي الصغير يلعب بالمكان.. لمْ تقمْ بتحذيره.. حرقه الماء الساخن وهو يعاني حتى اللحظة...

أنا: وكيف أحذّره وأنا لا أراه..؟

الرجل: لو ذكرت اسم الله لتنبّه ولدي وابتَعَدْ.. فقط قُلْ: بسم الله الرحمن الرحيم فيبتعد الجنّ عن المكان...

أنا: حسناً.. وماذا بعد الآن..؟ هل سنبقى في هذا العذاب..؟ هل تودّ قتلنا..؟

الرجل: نحن المسلمون لا نقتل أحداً...

أنا: وتقول مسلمين..؟! وهل يعذّب المسلم الناس..؟

الرجل: نعم.. فمنّا المسلم والكافر.. ونحن أمم وأديان كما أنتم.. ألا تعرف بأنّ محمداً بُعث إلى جميع الأمم وللناس كافة..؟

أنا: بلى أعرف.. ولكن الإسلام يحضّنا على التسامح...

الرجل: نعم.. ولكن لشدّة غضبي قمت بتعذيبكم.. أما وقد اكتشفتُ بأنّكم أناس محترمون، فقد قرّرتُ رفع العقاب عنكم حتى يشفى ولدي.

طال حوارنا حتى ظننتُ أننا أصبحنا أصدقاء.. ودّعني قائلاً: الآن سأذهب.. إذا احتجتني لأمر ما، أو أحببت أن تحدّثني، فعليك أنْ تنقر بحجرٍ صغيرٍ على هذه الصخرة، فتجدني عندك.

أنا: قبل أن تغادر، عليك أنْ تعلم بأنني سأحدّثُ والدي بكلّ ما دار بيننا...

الرجل: لا مانع لدي...

غادرني بعد أن أشعل بصيص نور لخلاصنا مما نحن فيه.. لقاء أدخل السرور على نفسي وأهلي.. هي لحظة هدنة.. السلام لا بدّ قادم.. صبرنا كثيراً.. لمْ يبقَ إلاّ القليل أو أكاد أجزم بأنّه انتهى.. اخبرتُ والدي الذي

جلس مشدوهاً يستمع لما أقول.. أراه وكأنّه غير مصدق لولا أنّه يعرف بأنني لا أكذب.

صمتٌ وإصغاءٌ منّي ومن عبدالله.. أمور لم نعتدْ سماعها.. أمورٌ مخيفة لا يصدّقها العقل.. لو لمْ نكن نعرف عن القصّة لاعتقدتُ بأنّ هذا الشاب يكذب ويختلق من خياله الأوهام والخزعبلات.

عاد خالد لإكمال حديثه فقال:

بدأتْ علاقات جديدة تربطني بهذا الجنيّ.. تماثل ابنه للشفاء.. أصبح يساعدنا في الكثير من أمور حياتنا.. يبتعد عن أيّ أمرٍ يُخالف الدين.. توطّدت علاقتي به.. استدعيه وأجالسه كلّما اشتقت لحديثه أو لطرد أيّ ملل يساورني.. وما هي إلاّ أيام وإذا به يُحضِرُ معه طفلاً لم أتبيّن ملامحه بشكل جيد.. أخبرني بأنه ولده المريض وقد عافاه الله ولهذا أحضره لأتعرّف عليه

وألعب معه.. أصبحتُ أمضي أغلب وقتي مع الولد وأحياناً الأب.

ذات يوم، جاء الجنيّ وحده ليلعب معي.. قال لي:

الجنيّ: يبدو أنّكم بخلاء...!

أنا: وكيف عرفت..؟ وعلى أيّ أساس حكمت..؟

الجنيّ: لمَ لا تدعوننا إلى تناول طعام الغداء عندكم..؟

نظرتُ إليه بتعجّب واستغراب وأخبرته بأنّه عليّ أن أستشير والدي.. أبي الذي استغرب الأمر.. طلب منّي أن أسأله عمّا يريدون وتفاصيل الأمور.. أخبرني الجنيّ بأن نقوم بطهي أيّ طعام ثمّ نقوم بتجهيز السفرة في غرفة الضيوف ووضع طعام يكفي لثمانية أفراد هو عدد أفراد أسرته.

قامت أمّي بتجهيز طبخة مقلوبة.. وضعتها في غرفة الضيوف ووضعت ملاعق وصحون وماء وبيبسي وقمنا بإغلاق باب الغرفة بالمفتاح كما طلب.. جلسنا في الصالون ننتظر الانتهاء من تناولهم للطعام.. سمعنا صوت إصطكاك الملاعق بالصحون الزّجاجيّة.. أخبرني بانتهائهم وأنّ علينا أن نذهب لنرفع ما تبقّى خلفهم.. دخلنا لنجد أنّ هناك ضيوفاً كانوا يتناولون الطعام.. فالطعام مأكول.. الشراب مشروب.. الأواني مستخدمة.

زاد استغرابنا من الموضوع ولكنّ الشوق شدّنا لسماع ما تبقّى من القصة الغريبة العجيبة.

عاد خالد يُكمل حديثه فقال: استمرّت علاقتنا تتطور.. نمضي وقتاً أطول في اللعب.. في أحد الأيّام جاء الجنيّ ليخبرني برغبته أن يدعونا لتناول طعام الغداء عندهم.. استهجن الأمر والدي وطلب منّي أن استفسر منه عن تفاصيل هذه الدعوة.. أخبرني الجنيّ بأنهم سيصنعون لنا

طعاماً في بيتهم الواقع في باطن الأرض وهم من سيقومون بنقلنا إلى هناك.. زاد استغراب والدي وتساءل:

كيف لنا أن ندخل في باطن الأرض..؟!..

كان ردّ الجنيّ بأنّ هذا عملهم ولا دخل لنا بذلك.. رفض والدي بشدّة.. بدأت العلاقة تفتر إلى أن جاء ولد الجنيّ وبدأ يلاعبني على أحد أغصان التينة.. كان يهزّ الغصن للأعلى وللأسفل.. فجأة انكسر بي الغصن.. سقطتُ على الأرض.. استاء والدي كثيراً.. طلب منّي إنهاء علاقتي بهم.. تمّ له ما أراد.. أصبحت أنقر بالحجر على الصخرة فلا يحضرون.. وها هي حياتنا تعود كما كانت ولكننا أصبحنا نحرص على ذكر اسم الله عند القيام بأيّ عمل.. فهناك مخلوقات غيرنا تُقاسمنا العيش على هذه الأرض وفيها...!

❖❖❖

الدّفينـــة

منخفضٌ جويٌّ قويٌّ مصحوباً بالأمطارِ الغزيرةِ والبَرَدْ يؤثّر على جنوب المملكة.. ثلوجٌ متراكمة تتساقط على شمالها.. أعلنت الحكومة عن تعطيل جميع المؤسسات الحكوميّة والخاصّة أعمالها حفاظاً على سلامة الناس.. تهافت الناس على المخابز والمولات لشراء المواد التموينيّة لتخزينها رغم إعلان الحكومة عن توفّر كلّ شيء وبكميّات تكفي لعدّة شهور.. وقفتُ خلف شبّاك غرفتي أنظر إلى الثلوج وحركة المارّة الخفيفة.. يتحرّكون بثقل وبصعوبة بالغة.. ثلاثة من أبناء الحارة والذين أعرفهم يقفون تحت الثلج المتساقط.. يتحدّثون.. يحتدّون أحياناً فتزداد حركاتهم وإشاراتهم.. هؤلاء الثلاثة كانوا لا يظهرون إلاّ نادراً.. منذر كان يجاورنا.. كسّاب وكامل يبعدان عنّا بعشرات الأمتار.. أعرفهم حقّ المعرفة من المدرسة والحارة.. منذُ عام بدأ ثلاثتهم

يختفون نهاراً ويخرجون ليلاً إلى وُجهة مجهولة.. تركوا الدراسة منذ سنتين.. صحبتهم أصبحت مشبوهة عند أهل الحارة.. لا أحد يعرف ما يعملون أو أين يعملون.. يخرجون أحياناُ يحملون معهم أدوات حفر وحبال.. يغيبون في غياهب المجهول حتى بزوغ الفجر.. يعودون والتعب والهُزال بادٍ عليهم.. أربعة أيام وأنا أراهم يقفون يتناقشون لفترة ثمّ ينصرفون.

ذاب الثلج.. بدأ نظامهم القديم في الخروج ليلاً.. توفي والد كسّاب فالتزم ثلاثتهم في بيت العزاء.. ذهبت للقيام بواجب العزاء.. جلس منذر إلى جواري.. سألته عن أحواله وعمله.. زفر بألم وقال:

منذر: واللّه يا جاري الوضع سيء.. مش زابطة معنا...

أنا: وكيف ذلك..؟ بماذا تعمل يا منذر..؟

منذر: والله يا جار أعمل وصاحبيّ كسّاب وكامل بأعمال حرّة.. (وابتسم ابتسامة صفراء تنمّ عن خبث الإجابة).

تجاهلت ابتسامته هذه وكأنني لا أفهمها.. قلت له:

أنا: لمْ أفهم يا جاري ماذا تقصد بأعمالكم الحرّة...

منذر: إذا رزقنا الله، فسنصبح من أثرى الناس...

أنا: وكيف ذلك..؟!

منذر: هي محاولتنا الأخيرة.. إنْ لمْ تنجح معنا فسأتوب عن هذا العمل وأعود إلى حياتي العاديّة...

أنا: إنّك تجعلني فضوليّ أكثر لأعرف عملكم..

منذر: لا يمكننا التحدّث هنا.. أعرف أنّك كاتب مبدع.. إذا وعدتني أنْ تكتب قصّتنا، فسأقوم بشرح كلّ شيء...

أنا (بعدما شدّني الفضول كثيراً): أعدك...

منذر: إذن سألتقيك بعد يومين.. كن مستعداً لأجمل وأخطر قصة ستسمعها.. ستغوص في أعماق محيطات المجهول.. سأكشف لك حقائق من عُمْقِ أدغال الوهم والخداع.

غادرت والشوق يشدّني لسماع قصتهم.. الساعة أظنّها توقفت بانتظار لحظة اللقاء.. اليومان أحسبهما سنتان.. لم يعرف النوم طريقاً لجفوني التي التهبت من قلّة النوم بانتظار هذا الموعد الهام.. أظنّها أصبحت قضيّة هامة عندي.. وعدني بأنّه سيعطيني معلومات سريّة وهامّة.. ستكون قصتي القادمة مختلفة عمّا اعتدتُ كتابته.

مضى الوقت ثقيلاً.. أنتظر منذر كفتاة موعودة بلقاء خطيبها المغترب.. هو ليس الحبيب القادم على حصان أبيض.. بينما أسرح باللقاء معه، سمعت صوت قرع على

الباب.. ذهبت لأستبين الطارق.. كانت المفاجأة أنّه منذر.. دعوته للدّخول فاعتذر لانشغاله بأمرٍ ما لمْ يُفصح عن ماهيّته.. أخبرني بأنّ موعدنا سيكون في الغد بالحديقة العامة الواقعة في حيّنا.. تلك الحديقة التي تكتظّ بأسرار النّاس.. يرتادونها في الغالب لبثّ همومهم ومشكلاتهم.. يدفنون فيها ما يُثقل كاهلهم.. يعودون وقد أفرغوا ما في جعبتهم بين أشجارها وورودها.. ينفضون ما علق في نفوسهم من مآسي وآلام تراكمت في قلوبهم.. الحياة حبلى بالقسوة والآثام.. نظر إليّ وكأنّه يمُنُّ عليّ بأمرٍ عظيم.. ثمّ أردف بأنّ العاشرة صباحاً ستكون ساعة الصفر لبدء اللقاء.. أظنّه يتعامل معي بأسلوب ومصطلحات عسكريّة توجب السريّة التامّة خوفاً من سماع أحد بهذا اللقاء الهام.

غادرني على عجل.. أغلقتُ الباب وعدتُ إلى الداخل راقصاً مدندناً بأغنية أم كلثوم: (حقابله بكرة.. وبعد بكرة.. وبعد بعده.. وأقوله بكرة...)

في تلك الليلة، نمت في وقت مبكرٍ من شدّة التعب، لمْ أفكّر كثيراً باللقاء.. لمْ تكنْ أكثر من سويعات ونلتقي.. هيّأتُ نفسي لأنْ أكون مستيقظاً بكافة حواسي لمتابعته.. أحسبني نمت نومة الغزلان.. عين تنام وعين ترقب.. الوقت الطويل يمرّ على النائم وكأنّه لحظة.. النائم كالميت لا يدري كم مضى عليه من الزمن.. خير مثالٍ لاحتساب زمن النّوم، هو ما حصل مع أهل الكهف (كما ورد في القرآن الكريم).. حين سُئلوا عن المدة التي لبثوا فيها نائمين، وكانت ثلاثمئة وتسع سنين قمريّة، فقالوا:

(لبثنا يوماً أو بعض يوم).. هكذا يُقدّر النّائم زمن النّوم.. وهذا أنا.. مرّت عليّ لحظة وإذا بي أعود للحياة

بوضح النهار.. جهّزت نفسي بعد أنْ تناولت طعام إفطاري.. كانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف.. خرجت أمشي الهوينى.. أسير بخطى ثابتة ومتزنة كأنني منتصر في حرب ضروس.. لمْ أجد في الحديقة سوى أربع نساء مع أطفالهنّ الصغار يتناولون طعام إفطارهم.. الأطفال يأكلون تارة ويلعبون أخرى.. شدّني ما هم فيه من سعادة حتى حسبتني أحدهم.. أنظر إليهم وفي قرارة نفسي رغبة جامحة أن أشاركهم تلك اللحظات السعيدة.. لأنْ أطير وأعلو في سمائهم.. استدرتُ إلى الخلف أرقبُ مدخل الحديقة، وإذا بمنذر يُطلّ بابتسامته التي طالما أحببتها.. لحظة الحسم حانت.. قصّة وأسرار مهمّة وخطيرة تقترب منّي.. انفراج أزمة للفكر تأتي.. الفضول الذي يشغلني بدأت نهايته.. ولكنها البداية لسماع ما لا يتحدّث به الناس من أسرارهم المكبوتة.

استقبلت منذر استقبال قائد فاتح يعود من أرض المعركة.. كيف لا وهو بطل قصّتي القادمة وصاحب أسرارها.. بادرته بسؤاله عن سبب كلّ هذا التحفّظ وهذه السريّة.. فأخبرني بأنّ هناك قوانين وأنظمة مشدّدة من قبل الحكومة على عملهم، عاديك عن الرقابة المستمرّة على مثل هذه الأعمال.. وعندما سألته عن طبيعة هذا العمل أفاد بأنّهم يعملون في التنقيب عن الدّفائن الذهبيّة والأثريّة وهي من الأمور الخطيرة والمحظورة.. سكت قليلاً ثمّ طلب منّي الإنصات والإستماع لما سيقول.

منذر: سأروي لك من فم الحقيقة الممزوجة بوهم الخيال.. ترتعد فرائضي كلّما استذكرتُ بعضاً من روايات من خاضوا غمار المخاطرة وصحبة الجنيّ والساحر للوصول إلى وهمٍ يحسبونه سيوصلهم إلى الحقيقة والسداد.. مثلهم أنا أرنو لبلوغ نكهة المجد

المستعصية لأحتسيها بشوق بعيداً عن مرارة الحياة.. لأصل إلى ذروة المجد وأعدم الفاقة والعَوَزْ.. أسير في دروب الظلام الموحشة لعلّي آنَسُ نوراً في نهاية النفق المظلم.. أو أستطيع إشعال قبس صغيرٍ لشعلة تنير طريقي إلى سعادة وحياة أفضل.

أنت تعلم بأنّني كنت وصديقيّ كسّاب وكامل من أكسل طلاب الصف.. تركا الدراسة وبقيت أنا أكابد ما لا أحبّ.. نفد صبري بعدما أصبحت أفتقد صاحباي.. تعاضدا في عملهما السرّي.. شدّني الفضول لمعرفة حقيقته.. سألت كامل عن غيابهماً نهاراً وليلاً.. اقترب هامساً في أذني: هل عندك متّسع في صدرك الصغير لسرٍّ كبير..؟ أومأتُ له برأسي ونظرت إليه معاتباً وكأنّني أصبحت غريباً عنهما ونحن الأصدقاء الذين كنّا لا نُطيق بعداً.. قال لي هامساً ونحن وحيدين:

نحن يا صديقي ننام في النهار ونعمل في الليل بالحفر والبحث عن (اللقايا).. هذه الدّفائن غير مسموح البحث عنها، لذا وجبت السريّة الشديدة في هذا الأمر كي لا يفتضح أمرنا ونمضي حياتنا بالسجن.

زرع في نفسي أملاً لمستقبل واعد وحياة أفضل بعدما عرض عليّ أن أرافقهما وأنضمّ إلى المسيرة المبهمة.. قررت ترك المدرسة وبدأت أرافقهما.. نذهب ليلاً إلى مناطق الآثار أو الكهوف.. نأخذ معنا الشموع أو الفانوس وأدوات الحفر.. نبدأ بالحفر على مهل وبلا تخطيط أو علمٍ عن شيء مُسبق.. نحفر ساعة، ونجلس نتسامر ساعة، والأمل يشدّنا مع كلّ ضربة فأس أو سحبة مجرفة لأن نجد شيئاً ينقذنا من واقعنا الأليم.. نحفر معتقدين أنّ الضربة القادمة ستكشف لنا عن بصيص النور الموصل إلى طريق المجد.. أملٌ يجدد العزم فينا فلا نكلّ ولا نملّ.. كلاعب القمار.. يدمن على

اللعب متشبّثاً بأمل سيوصله إلى الربح والغنى.. الحقيقة أنني لا أعرف لاعب قمار وصل إلى الثراء يوماً.. إنْ ربح مرّة يكون قد خسر مرّات.. في المحصّلة هو فقير معدم.. أمله الواهم لن يوصله إلاّ إلى الضياع.. وهذا حال حفّاري الدّفائن.. سمعت عن أناس وجدوا ذهباً ولكنني لستُ متأكداً من حقيقة هذا الأمر.. ربّما هو كذب يصدر عن بعضهم راسماً حلماً لخيال أو طموح بعيد المنال.. يتشبّث به السّاذج والغشيم.

محترفون وكبار في هذه المهنة إن قُدّر لنا أن نسميها مهنة.. هؤلاء يعملون من خلال معلومات شبه مؤكّدة أو من خلال خرائط قديمة تحدّد بعض المواقع لهذه الكنوز. قاطعته متسائلاً عن هذه الخرائط والمعلومات ومصدرها.. فأجاب بعد أنْ تنهّد مستغرباً:

أنت تعلم يا صديقي بأنّه عند اشتعال شرارة الثورة العربيّة الكبرى بقيادة الشريف الحسين بن علي، بدأت

الجيوش التركيّة بالإنسحاب والتقهقر.. كان عندهم الكثير من الذهب.. أصبح عبئاً ثقيلاً عليهم خلال انسحابهم.. قاموا بدفنه بالجبال وأماكن قاموا بتثبيتها على خرائط ليعودوا لها لاحقاً ويستعيدوها.. هؤلاء يقومون بالعودة ليبيعوا تلك الخرائط التي تحمل معلومات مؤكّدة وأخرى وهميّة.. وكما سمعنا بأنّ المواقع الحقيقيّة يكون لها (رصد) يحرس المال.. هذا الرَصَد يكون على شكل أفعى ضخمة أو وحشٍ **شيطانيّ** من الكواسر.. لا يستطيع أيّ شخص أنْ يُسخِّر الرصد إلاّ إذا كان ساحراً متمكّناً.. قاطعته للمرّة الثانية وقلت:

أنا: إذن فالجنّ والسحرة هم عوامل مهمة في هذا العمل.. وأستذكر في هذا المقام حين جاء أحدهم إلى أبي محمود الصغيّر وأخبره بأنّ أباه أخبره عن كلام تداوله الناس عن وجود ذهب في أرضه.. كان يهزأ بأقوالهم..

لكنّ أبا محمود قرّر البحث عن الذهب، بعدما جاء التنظيم، وأخذ ستة أمتار من أرضه لشقّ شارع للمنطقة.. بنى أبو محمود سوراً مرتفعا.. بدأ الحفر داخل حرم السور وفي أماكن مختلفة.. تعب كثيراً ولم يعثر على شيء.. بعد سنة قرّرت البلدية المباشرة بجرف المنطقة لفتح الشارع وتعبيده.. خلال عمل الجرافة فُتحت مغارة.. عندما نظروا فيها من الأعلى، رأوا صناديق معدنية عددها ثلاثة في الأسفل.. تمّ استدعاء الشرطة واستولوا على الصناديق التي احتوت على تماثيل ذهبيّة.. صدمة كبيرة لأبي محمود.. أصيب بجلطة أدّت لوفاته.. هناك روايات عن حقائق في هذا المجال.. وأحياناً تكون المعلومة صادقة والناس لا تثق بها...

منذر: نعم صحيح.. هو كذلك.. والشيوخ الذين يقومون بفكّ الرّصَدْ يذهبون لقراءة القرآن.. يبدؤون بالقراءة والتمتمة.. وهذا ما يؤكد أنّهم سَحَرة وليسوا شيوخاً..

في الغالب يفشلون ويهربون خوفاً عند خروج الرَصَدْ لضعفهم وخوفهم.. يُحاولون الوصول إلى هدفهم عن طريق غيرهم فيوقعون الناس بمآزق لا يستطيعون الخروج منها.. بعضهم استطاع أن يصل (كما سمعت) إلى الدّفينة.. حصل خلاف بين الحفّيرة حين ظهر الذهب.. تشاجروا.. عادتْ (اللّقيّة) واختفت مرّة أخرى.. سمعتُ عن حالة خلاف بين من وصلوا إلى الذهب ما اضطرّ أحدهم لقتل أحد زملائه.. يحفرون متفقين بالظاهر.. الحقيقة أنّ قلوبهم شتّى.. يتآمرون ضدّ بعضهم.. في النهاية لن يكون بينهم فائز.. أمّا عن حقيقة أنّ البعض وجد ذهباً، ما هو إلاّ محض صدفة ويكون فيه الكنز غير مرصود.

طلب منّي استراحة قصيرة لشراء فنجان قهوة من الكشك القريب داخل الحديقة.. أعجبني اقتراحه.. ذهبنا لشراء القهوة لنحتسي معها جرعة صبر وتهدأة.

عدنا نمشي الهوينى.. خطواتنا المتقاربة، تشدّنا إلى مقعدنا الذي أصبح شريكي في الإستماع إلى أسرار مكبوتة في صدر حفّار وباحث عن دفائن الوهم والضياع.. هي مدفونة بشرّها.. تسكن الأرض وتنعم بسلام وأمان.. لماذا يقضّون مضجعها لتكشّر عن أنيابها.. تفترس مستقبلهم وراحتهم.. تقضّ مضاجعهم فلا ينامون ليحلموا أحلاماً سعيدة.. ولا يهنؤون بسبات ولباس جعل الله فيه راحةً للناس.

عاد منذر ليؤكد لي بأنّ ما يقومون به هو محض وهم.. لم يصلوا لشيء ولن يصلوا.. أكدّ لي بأن القصص في هذا المجال لا تنتهي.. وأنّ الباحثين عن الضياع لا ينتهون.. يتوارثون الوهم والضياع.. السّحرَة والجنّ يلعبون بهم كيف يشاؤوا.. يسيرون على خطى **الشيطان** ولن يُفلحوا... بادرته قائلاً:

أنا: ما دمتم تعرفون كلّ هذه الحقائق، فلمَ لا تتوقّفون وتعودون إلى رشدكم..؟ أليس بينكم رجل رشيد يصوّب أفكاركم ويبعدكم عن طريق الضلال هذا..؟

منذر: ذكرتُ لك يا صاحبي بأنّ عملنا هذا ما هو إلاّ لعب قمار.. كلّ يوم نقول سنربح، ولكننا نغوط في وحل الأقذار والضياع.. لمْ يمْشِ أحد في هذا الطريق إلاّ وكان الفقر والعوز سمته..

أنا: ولمَ لا تتوقف أنت وفوراً..؟

منذر: هناك مرحلة عمل تحتاج منّا ليلة أو اثنتين.. سأرافق صديقاي بها ثمّ أتوقّف حتى لو وجدت كنوز قارون.. وسأحدّثك الآن بقصّة العمل الذي نقوم به حاليّاً وهو من أهمّ وأخطر ما قمنا به.. استمع وسترى العجب العجاب:

أبو ناصر رجلٌ أحدب الظهر.. قصير القامة.. واسع العينين الملونتين بلون زُرقة السماء.. نظراته تنمُّ عن خبْثٍ ودهاء.. أفطس الأنف.. أدعج البطن.. أصفر الأسنان.. كثّ الشعر أشعثه.. معكوف الشاربين المصفرّين من كثرة التدخين.. طويل الذراعين.. قصير القامتين.. شديد البنية.. يعتمر غطاء رأس كالقلنسوة.. لا تستر رأسه ولا تقيه حرّ الشمس.. رجل غريب الصفات عجيبها.. يمشي ناظراً إلى الأرض كمَنْ يبحث عن شيءٍ فقده.. خطوط تعرّجت في جبهته.. خطوط الشّقاء وعناء العيش الصّعب.. يمتاز بلبسه حذاءاً بلاستيكيّاً مهتريء.. هو كما يقولون: (أكل عليه الزمان وشرب).. صاحب أرض بعيدة تقع في قلب جبل شاهق قلّ من يذهب ليرتقي عليائه.. علم أننا نقوم بالحفر والتنقيب عن (لقايا).. أخبرنا بأنّ لديه مغارة تقع في أرضه.. حاول دخولها عدّة مرات.. لكثرة دهاليزها وأنفاقها، يساوره

الخوف فلا يُكملُ عمله ويعود.. يحتاج لمساعدين لديهم الخبرة في مثل هذه الأعمال لمساعدته على أن تكون (اللقيّة) مناصفة بين الجميع.. اتفقنا معه.. أخذنا أدوات الحفر والحبال والشموع إضافة إلى الفوانيس.. طلبنا منه تأمين بعض المعلبات والماء.. شددنا رحالنا في ذاك المساء.. أوصلنا إلى مدخل الكهف.. المنطقة لا يصلها الناس.. أرضه مسيّجة بسياج مرتفع.. هذا العمل سيكون مريحاً وبلا خوف من المراقبين.. كان علينا أن نحبوا كالجنود المتدربين على الزّحف.. احتاج منا الأمر أن نزحف لعدّة أمتار ناقلين معنا معدّاتنا.. اجتزنا هذا النفق لندخل في نفق أوسع وأعلى قليلاً.. أصبحنا نمشي على أرجلنا.. نحني ظهورنا لأنّ إرتفاع النّفق لا يسمح لنا بالوقوف.. عدّة أمتارٍ أيضاً.. دخلنا في نفق مرتفع بدرج يهبط بنا لأكثر من عشرين درجة.. وصلنا إلى غرفة واسعة يتجاوز طولها العشرة أمتار كما هو عرضها.. في

سقفها (روزنة).. هذا الاسم يطلقونه على فتحة تمتد من سقف الغرفة مرتفعة عدّة أمتار حتى تصل إلى سطح الأرض وتكون فتحتها في صخرة سطحيّة.. تزوّد المكان بالنور والهواء.. في ثلاثة جوانب منها أبواب لا يتعدّى إرتفاعها المتر ونصف المتر.. أمّا عرضها فلا يتعدّى المتر الواحد.. مغلقة بحجارة كبيرة الحجم ولكننا نستطيع إزاحتها.. نسمع صوت هسيس خفيف يصدره الهواء الداخل من (الروزنة) يكسر الصمت المُطبق على المكان.. بدأنا بفتح أول باب لنجد نفقاً يمتد إلى الدّاخل بعمق لم نتبيّن سوى عدّة أمتار بسبب الظلمة.. فتحنا الآخر.. والثالث لنرى ما رأيناه في الأول.. دخلنا في النفق الأول.. بدأنا نشعر بلسعة بَرْد.. أشعلنا الفوانيس وشمعتان.. استمرار اشتعال الشمعة يدلّ على أن الأكسجين متوفّر في النفق.. سرنا لمسافة تزيد على الخمسين متراً لنصل إلى غرفة واسعة جداً.. أقدّرُ بأنّ

طولها يصل إلى الثلاثين متراً وكذا عرضها.. أعتقدنا بأنّ هذا المكان كان من أيّام الرومان واليونان يستخدمونه كمكان عسكريّ لشدّة تحصينه ونزوله للأسفل.. وجدنا أيضاً نفقان آخران في جدران هذه القاعة الواسعة.. أحسبنا دخلنا إلى مدينة خالية من البشر وربّما **الشياطين** أيضاً.. مدينة داهمها وباء فتّاك فأفنى فيها كلّ متحرّك وحيّ.. قتل كلّ ما يتحرّك فيها على رجلين أو أكثر أو حتّى بلا أرجل أو جناح.. حتّى ما يزحف على بطنه.. قررنا أن نتوقّف هنا في هذا اليوم على أن نعود في اليوم التالي لاستكشاف النفق الثاني فالثالث.

شدّني ما يقوله منذر.. بدأت ضربات قلبي تتسارع.. خوف مكبوت في صدري فضحته ضربات قلبي الذي لم يعتَدْ على مثل هذه الأمور.. استجمعتُ قواي ورباطة

جأشي.. قلتُ له بحزم.. أكمل.. فقد بدأ الشوق يأخذني معك في غياهب رحلة المجهول...

منذر: ما زلنا في البداية وأعتقدك لو كنت معنا لأكملت مسيرتك ولأدمنت عملنا.. كيف لك أن تلومنا.. هذه هي القمار.. تُدمن عليها رغم علمك بخسارتك مسبقاً.. الأمل بالرّبح يبقى قائماً.. على أيّة حال.. عدنا في اليوم التالي والأمل يحدونا بالوصول إلى شيء خلف تلك الأبواب المغلقة أو تلك الغرف.. دخلنا النفق الثاني والثالث فكانا نسخة عن الأول.... في النفق الثالث، وقبل الوصول إلى القاعة وجدنا باباً يقود من خلال نفق شديد الظلمة إلى غرفة أخرى.. لا يتجاوز طول هذا النفق العشرة أمتار فقط.. دخلنا الغرفة والتي تكبُر الغرفة الأولى بقليل.. وجدنا فيها عدّة قبور تم نحتها في الصخر.. فارغة إلاّ من عظيمات لمْ نستطع أن نتبيّن إن كانت لأناس أم لحيوانات.. لم يتبقّ منها إلاّ عُظيْمات

مهشّمة.. هنا بدأت قلوبنا تتراقص فرحاً بأننا سنصل إلى شيء يعوّض صبرنا خيراً...

كامل نعتبره مهرّجنا..لا يتوقف عن المزاح وسرد النكات.. مرة علينا ومرات نكات يرويها.. هذا ما كان يشعرنا بالأمان قليلاً رُغم أنّ أنفاسنا تتقطّع من رهبة المكان وسكونه الغريب.. كنت ألمس خوفه أحياناً وهو يروي نكاته.. أما أنا وكسّاب وأبو ناصر، فكانت دقّات قلوبنا تُسمع.. عاديك عن لُهاث الخوف الذي يعترينا.. يفضحنا بين بعضنا.. عندما يشعر أحدنا بالخوف يتسلل إلى أيّ منّا، تراه يُحاول تهدئتنا.. في الحقيقة هو يرسل لنا إشارة بأن صديقنا يشعر بالخوف وعلينا أن نخاف نحن أيضاً.

في زاوية تلك الغرفة، هناك درج رفيع يرتفع إلى مسافة لا نستطيع أن نتبيّنها.. قررنا أنْ نأتي في الغد خلال ساعات النهار لاستبيان هذا الدرج.. اعتقدنا بأنّ

النهار ربّما يخدمنا.. يقولون بأنّ النهار له عيون نرى بها.. أمّا الليل فهو أعمى.. ولكنّ النهار فاضح والليل ساتر.

في تمام الثامنة صباحاً من اليوم التالي، كنّا جميعا هناك.. قدمنا وأملٌ يحدونا بغنىً ينتظرنا.. في أسفل قطعة الأرض، كان هناك عددٌ كبيرٌ من الجنود المدجّجين بأسلحتهم.. يسيرون متقاربين في صفّين.. تملّكنا الخوف الشديد.. جلسنا على الأرض ننتظر قدرنا.. كلّ منا بدأ يشكّ بأنّ بيننا من قام بالتبليغ عنّا.. الخيانة في هذا العمل من أساسيّاته.. كاد أن يقع بيننا شجار هادىء.. بعد قليل تبيّن لنا أنّ الجنود يقومون بحصّة تدريبيّة على المسير في الجبال.. مرّوا دون أن يلتفتوا لنا أو يحدّثونا.. إرباك أصابنا.. قررنا أن نعود للراحة وأن نحضر بعد أذان العصر.. نكون قد نمنا وارتاحت أعصابنا.. نجدد نشاطنا وترتفع معنويّاتنا.

لمْ أستطع صبراً لسماع ما تبقّى.. لقد أوصلني لنقطة حرجة.. هل ما بقي من قصّته يغيّر ما حملته من أفكار..؟ هل جميع الحقائق التي وصلت إليها ستصبح سراباً وكذباً..؟ هل من يقومون بهذا العمل إنّما يسيرون على خطى **الشيطان**..؟ أسئلة عديدة بدأت تراودني.. أوقعتني في حيْرة من أمري.. تُهتُ ما بين الحقيقة والخيال.. بين الصدق والكذب.. بين الثراء والضياع.. صرخت في وجهه بإرباك واضح طالباً إكمال ما بدأه.. هدّأ من روعي وعاد ليكمل حديثه بثبات وصلابة وكأنّه حقّق نصراً مؤزراً عليّ.. فقال:

عدنا بعد العصر.. (لمْ تأتِ العتمة على قدْ يد الحرامي).. لم يخدمنا النهار في شيء.. الظلمة كانت أشدّ من توقعاتنا.. غطّى سوادها على ضوء النهار.. كان الدرج رفيعاً يصل عرضه إلى النصف متر أو يزيد قليلاً.. ارتفاع الدرجة يصل إلى الرّبع متر.. صعوده صعبٌ للغاية..

اقترحنا على كامل (وكان أنحفنا بنية)، أن يصعد ويرى كم ترتفع الدرجات.. كنّا نرقبه فلا نرى إلاّ بصيص نور الفانوس الصغير يعلو ويرتفع.. لا ننقطع عن الحديث معه لنبقى على يقين بأنّ أموره تسير على خير ما يُرام.. يجلس ليرتاح قليلاً ثمّ يُتابع ونحن نسمع صوت أنفاسه اللاّهثة.. فجأة صرخ مبدياً فرحه.. ظننّا أنّه وجد الضّالة.. لم تدم دهشتنا وفرحتنا أكثر من ثوانٍ قليلة.. قال: وصلت.. وصلت.. لقد بلغتُ القمّة.. ستون درجة أنهكتني.. خرّت قواي.. التّنفّس بصعوبة هنا.. ولكنّني سأنزل بعد أن أرتاح.

بعد ربع ساعة من الزمن.. بدأ ينزل على مهل خوفاً من أن يسقط.. حين وصل قال:

لن تستطيعوا الصعود هكذا.. أقترح أنْ نُحضر شاكوشاً وإزميلاً كيْ أقوم بثبيت الإزميل في أعلى الدرج، ثمّ أقوم بربط الحبل به ليساعدكم على

التسلّق.. وهذا ما كان فعلاً.. وصوله لأعلى الدرج حفّزَنا كثيراً خاصّة بعد أن قال بأن الدرج ينتهي ببسطة بطول مترين وفي نهايتها باب مغلق بالحجارة.. هنا بدأت شكوكنا تقوى بأنّ الذهب يرقد بسلام خلف هذه الحجارة المتربعة على قمّة هذا العرش المظلم.. كان اقتراحي لهم أنْ نعود في اليوم التالي لنكمل مسيرتنا.. القدر كان أسرع منّا فأوقفنا مؤقتاً.. موت والد كسّاب أعطانا مهلة للراحة وتدارُس الأمر بشكل أوسع.. أمّا الآن فأنا أجالسك وأحدّثك.. ربّما نذهب غداً أو بعد غدٍ لاستكمال المرحلة الأخيرة.. سأوافيك بباقي قصتنا.. ستكون نهايتها بداية حياة جديدة بالنسبة لي.. أعتقد بأننا إذا وجدنا ذهباً أو لم نجد فإننا نسير على خطى **الشيطان**.. ورفيق **الشيطان** لن يجد غنىً أبداً.. وهذه قناعتي التي وصلتُ إليها.

غياب منذر عنّي أعادني إلى المربّع الأوّل من القلق والحيْرة.. لن أستطيع أن أمحو قلقي أو خوفي من مفاجآت قادمة قبل أن أعرف بقيّة القصّة.. كما أنّني لن أتمكن من الكتابة كما وعدته أيضاً، وأفكاري مشوّشة.. بدأت الأيام تمرّ بثقلها وغموضها.. أنتظر بفارغ الصبر أنْ يأتي منذر ويُتمّ حديثه معي لأسدل الستار على مأساة تسرق حياة الكثيرين وأخذهم إلى عالم الوهم والخيال والجنّ.

أسبوع بالتمام والكمال.. حسبته شهراً.. لا بَلْ عاماً ثقيلاً مرّ عليّ وأنا أنتظر منذر.. ذات مساء، وأنا عائد من صلاة العشاء وكان يوم الخميس.. وإذا بأحدهم يضع يده على كتفي الأيسر من الخلف.. التفتُّ لأرى منذر يبتسم.. سلّم عليّ سلاماً حارّاً وقال لي:

هل يسمح وقت معاليك أنْ نلتقي غداً في نفس المكان والزمان السّابقين؟. غداً ننتهي يا صديقي لتفي بوعدك

لي... وابتسم ابتسامةً جعلت شكوكي تزداد بأنّ هناك مفاجأة لن أتوقعها.. ولكن الأسئلة بدأت تتخاطر تباعاً على رأسي...

هل وجدوا ذهباً..؟ هل وجدوا آثاراً ثمينة..؟ هل ذهب تعبهم أدراج الرّياح..؟ هل وجدوا رصداً..؟ هل الرصد جنيّ أو أفعى أو وحش مفترس..؟ الكثير من الأسئلة والإستفسارات تناوبت في رأسي.. ثقلٌ جديدٌ أضافه منذر على كاهلي.. تساؤلات أغرب من الخيال تغزو مخيلتي المشوّهة بأحاديثه وأخرى قرأت عنها أو سمعتها.

أخيراً حانت لحظة الحسم والراحة.. مهما كان سوء الخاتمة، سيريح نفسي وأعصابي.. لا تهمّني النهاية إن كانت إيجابيّة أو سلبيّة بقدر اشتياقي لإسدال السّتار على خاتمة هذه القصّة.. إلتقينا في الحديقة التي فرغَت من الناس إلاّ منّا.. جلسنا وأنا أستحثّه على البدء في

الحديث.. ينظر لي وابتسامته الغريبة ترسم له وجهاً آخر لمْ آلفه.. أخيراً، بدأ التحدّث فقال:

سأحاول أنْ لا أطيل عليك.. بعد وصولنا إلى الدرج، صعدنا واحداً تلو الآخر مستعينين بالحبل.. نحمل أدوات الحفر والماء.. حين وصلنا بدأنا نزيل الحجارة.. الواحد تلو الآخر.. نُسقطه على الدرج فيبدأ يرتطم بالأدراج الحجريّة، ويصدر صوتاً مزعجاً إلى أن يصل إلى أرض القاعة.. خلف الحجارة وجدنا أتربة متماسكة.. بدأنا نحفرها ونلقي بها للأسفل.. خمسة أيّام ونحن نحفر بالتراب.. بالأمس، ظهر لنا بصيص نور.. اعتقدنا بأنّنا وصلنا إلى (روزنة) أخرى أو أننا وصلنا إلى الكنز.. تقدّمتُ أنظر من بصيص النور، كمن ينظر من ثقب باب.. رأيتُ شجرة زيتون لا تبتعد كثيراً.. ضحكت بأعلى صوتي؛ حتى سقطتُ أرضاً.. ينظرون إليّ مشدوهين يسألونني عن سبب ضحكي هذا.. قلت لهم:

بأن هذا النفق أوصلنا إلى نقطة البداية.. سنخرج إلى نفس المنطقة التي بدأنا منها.. حفرنا حفرة نستطيع الخروج منها.

أقسمتُ أن لا أسير على خطى **الشيطان** وأن أعود إلى رشدي.. وأعتقد بأنّ كسّاب، وكامل سينهيان مسيرتهما بالتنقيب التي أربكت حياتهما، وأوقعتهما بشرّ الفقر والتعب؛ فالرزق على اللّه.. ولن نأخذ غير رزقنا...!

❖❖❖

سيرة المؤلف

- توفيق أحمد عبد الرحمن جاد/ من مواليد نورشمس/طولكرم عام١٩٥٩
- أنهى الثانوية العامّة عام ١٩٧٧ من المدرسة الفاضليّة الثانوية في طولكرم.
- درس المساحة المستوية في عمّان، وعمل لدى العديد من الشركات المحلية والعربية والعالمية، عمل في بلدية الرمثا الكبرى بوظيفة مسّاح، ورئيسًا لقسم المساحة قبل تقاعده.
- عضو اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين سابقًا.
- عضو هيئة إدارية بمنصب أمين السرّ في الجمعية العربية للفكر والثقافة\الرمثا.
- عضو منتدى الجياد الثقافي بمنصب رئيس لجنة الشباب\ إربد.
- له العديد من النشاطات الثقافية والمقالات في مختلف وسائل الإعلام من تلفزة وإذاعة وصحافة ورقية، وإلكترونية.
- منح عضوية في أكثر من منتدى ثقافي عربي.

❖ صدرت له عام ٢٠١٦ مجموعة (الصرير) القصصية.

❖ صدرت له عام ٢٠١٧ رواية (الغداء الأخير).

❖ صدر له عام ٢٠١٨ كتاب (خربشات أدبية).

❖ إعداد وتحرير كتاب (عتبات صغيرة) عن طريق الجمعية العربية للفكر والثقافة عام ٢٠١٨.

❖ صدر له عام ٢٠١٩رواية (بِئْس مَارك).

❖ صدر له عام ٢٠٢٠ مجموعة (على خطى الشيطان) القصصية.

للتواصل مع المؤلف

الفيسبوك: (توفيق جاد)

الإيميل: (tawfiqjad59@gmail.com)

الفهرس

رقم الصفحة	الموضـــــوع
٥	الإهداء
٧	تقديم
١١	الموت قاعدا
١٩	الشيطان ثالثهما
٢٧	على خطى الشيطان
٣٧	البكارة
٥٢	الساحرة أم كُشّة
٨١	الزانية
١٠٤	الزائر والجنّي
١١٩	الدّفينة
١٤٩	سيرة المؤلف